

إجابة الداعي و غوث المستنجد عند العرب حسب تصويرهما في الشعر القديم*

للدكتور

محمد بن سليمان السديس

(*) المقصود هنا أبرز ما قيل في الموضوع من الشعر منذ ما قبل الإسلام حتى آخر العصر الأموي.

يغير مغبرون على الحيّ فيصيحُ أوّل من ينذرُ بهم حاثًا على الوقفة في وجههم وصدّهم. ويُلقي مقاتلُ نفسه والشرُّ قد كثرَ تلقاءهُ عن أنيابه فيطْلُقُ صيحةَ استنصارٍ واستصرّاخٍ مُدَوِّيةً، ويجد آخر نفسه، وقد كُبلت ساقاه، أو أوثقَ ساعدها، بقيودٍ ثقال، وطُرحَ شرًّا مطرح، لدن قومٍ (صُهبِ السِّبالِ) ما في أفئدتهم له ولِقَوْمه أدنى قدر من ودٍّ، فيرى من يتوسم فيه نجدةً ومروءةً فيُلقيها نُهزةً ليدعوه دعوةً مضطّرّ. وتُضحى امرأةٌ قاب قوسين أو أدنى من فقد حريتها فتفجّر من أقاصي أحشائها صرّخاتٍ حارّاتٍ حاضّةً رجالها على أن يهبوا لغوثها وتخليصها من مأزقها.

تلك الاستصراخاتُ والاستنجاتُ لا تذهب، في الغالب الأعمّ، أدراجَ الرياح، بل قد تلبّى حالما تُسمع، ولتليتها أصداء تردّدت كثيرا في الشعر العربيّ القديم.

وهذا البحث ينظر في تلك الأصداء ليصل إلى موقف العرب قديماً من الإنجاد وإجابة الداعي خلال الكلمة العربيّة الشاعرة.

كانت حياة العرب قبل الإسلام، وحياة الأعراب منهم في العصر الأمويّ بوجه خاصّ، كما لا يخفى، حياةً حربيّةً يكاد لا يفتّر فيها الصراع على المنتجات والمراعى في (المبادي) أو (المشاتي) أو (المرايع)، وعلى المناهل في (المحاضر)^(١). وبعبارة أخرى،

(١) المبادي: جد (المبدئي) وهو مكان الإقامة في البدو (البادية) في الشتاء والربيع، والمحاضر جد (المحض) وهو مكان الإقامة في (الحضر) قرب موارد المياه، أو على مشارف الأمصار، وفي القرى والريف في الصيف والقيظ. قال جرير:

كَيْفَ التَّلَاقِي، وَلَا بِالْقَيْظِ مَحْضَرُكُمْ مَنَا قَرِيبٌ، وَلَا مَبْدَاكِ مَبْدَانَا؟

كان الحال الأمي في أغلب الأحيان، مضطرباً ألياً اضطراب، فالقوي البطاش يستأسد على الكليل ويأكله. وكانت العصبية القبلية تسوق أفراد كل (وحدة اجتماعية) إلى عدااء (الوحدات الأخرى) وعداء أفرادها. والعداء يثمر الاعتداء، ويشمر الاعتداء بطبيعة الحال، إفساداً في الأرض، وإزهاقاً لأرواح، وسفكاً لدماء، فيزرع في دخائل الأنفس ضغائن وإحناء، إذ يظل الموتورون يتربصون الدوائر بواترهم فإن ظفروا بهم وإلا أخذوا ثأرهم من أي فرد عاثر الجذ من قبيلهم كائناً من كان. وكثيراً ما طال أمد التناحر، وإراقات الدماء، والانتقام، و(الانتقام المضاد)، بحيث يُسمي العنف «كالحلقة المفرغة لا يُدرى أين طرفاها»، لأن من شأن العرب في الجاهلية الحرص الشديد على الأخذ بالثأر إذ يرون فيه غسلاً لأثر الجريمة، وإعادة لكرامة القتل وآله، أو كما قد يقال الآن: «ردّ اعتبار لهم»، إلى جانب أنه عقاب للجاني هو له أهل.

وكان من يتتقم يُثنى عليه بأنه (طالب أثار)، أو (طالب ترات)، أو أنه (لا ينأ على وتر). كما يُعبر، بالمقابل، من يقبل الدية بأنه (آثر اللبن على الدم)، أو بأنه (باع قتيله باللبن) أو بنحو هذا، إيماءً إلى قبوله دية قتيله إِبلاء يشرب من دَرِّها^(١).

فلا غرو أن استعرت نيران العنف وجرائم القتل والاقتصاص من القتل والمُشتبه بهم، وكثيراً ما لم يقتصر العقاب على المسيء، كما أشرنا مُد قليل، بل ناله ونال من له به أدنى صلة، لأنه إذا كانت لا تزر، في الإسلام، وإزره وذر أخرى، فإنها في الجاهلية تزره. ولا غرو أيضاً أن لقي أناس كثر أنفسهم في ميسس الحاجة للإنجاد والغوث، ولا غرابة أن زخر الشعر العربي القديم ديوان العرب ومراً حياتهم بالحديث

(١) قال شاعر جاهلي مفتخراً بعدم قبول الدية، ومعبراً عن ذلك بأنه وقومه يأتون أن يجلبوا النياق حتى يأخذوا بالثأر من القاتل، يريد أنهم لا يقبلون الدية، وهي، في الغالب، إبل:

إذا ما طلبنا تَبَلْنَا عند مَعَشَر

أَسِينَا جِلَابَ الدَّرِّ، أو نَشْرَبَ الدِّمَا

عن «إجابة الداعي» و«إغاثة المستنجد (الصريح)»، و«التنفيس عن «المضاف» أو «المُرْهَق» أو المكروب».

و(الدّاعي) ربما دعا للعون على الإغارة للسلب وإحراز المال، وفي ذلك (مصلحةُ القبيلة) و(صالحُها العام)، وربما دعا لصدِّ غارةِ عدوٍّ طامعين، أو تخليص قومٍ مأسورين أو نسوةٍ مَسْبِيَّاتٍ، أو مالٍ سلبٍ نهبٍ، وهو، في الغالب، نَعَمٌ. وربما دعا داعٍ مكروبٌ أحْدَقَ به عدوُّه، أو أَلَمَ به فَرَقٌ أو سَغَبٌ أو بؤْسٌ، أو أيُّ بأسٍ غير ذلك، ولم يك له مناصٌّ من الاستنجد بذوي النجدة والشهامة من الرجال.

وفي الشعر القديم الثَّناء التَّامُّ على من يلبي الدَّعوة فينصر المستنصر، ومن ناحيةٍ أخرى، يَصُبُّ الشعرُ سيولَ دَمٍّ على المُتَلَكِّئِ في القيام بذلك الواجب أو المتقاعس عنه، وَيَصْمُهُ وَصَمَ عَارِ عَصِيٍّ المَحْو. وقد بلغ من إكبار العرب للنجدة وعدّها من المثلِّ الخَلِيقَةِ الخَلِيقَةِ بالرَّعي والصَّوْنِ أن العربيَّ، على شِدَّةِ وثاقَةِ ارتباطه بقومه ربما وقف منهم موقف الخَصَمِ من أجلِ إِنْجَادِ مستغيثٍ تَوَسَّمَ فيه مروءةً فدعاه لنصرته. ولنا أن نذكر، على سبيل المثال، يزيدُ بن الصَّعِقِ^(١) الكلابيُّ الذي استنجد به مرداسُ بن أبي عامر، لما سلبه أناس من قومٍ يزيدَ كلابٍ، يُدعون بني أبي بكر، مائة ناقة، فركب إليهم وجمع النياق كلها منهم وأعادها إلى مُردَّاس.^(٢)

أولاً: إجابة الدّاعين وإغاثة المستنجدين من الرُّجال:

في وَسَطِ اجتماعي تنعدم فيه السلطة الحاكمة القابضة قبضاً محكماً على زمام الأمور، وَسَطِ يخلو من قوى ضبط الأمن، ودفع العدوان، والأخذ على يد الجائر والمعتدي، والانتصاف منها للمظلوم، لا غرو أن عَوَّلَ الفرد وأن عَوَّلَت الجماعة على

(١) «الصَّعِق» لقب واسمه خويلد بن نفيل. وسمي «الصَّعِق» لأن صاعقة أصابته. ينظر مثلاً «نقائض جرير والفرزدق»، لندن: بريل، ١٣٢٦ - ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٨ - ١٩٠٩ م، ص ٣٨٧.

(٢) ينظر مثلاً المصدر نفسه، ٦٧٣/٢، والأعلام لخير الدين الزركلي، بيروت: دار العلم للملايين، [١٣٩٩ هـ] /

١٨٥/٨، ١٩٧٩ م.

الاستجابة للاستغاثة، وعدَّت تلك الاستجابة وسيلةً لا بد منها، لا من أجل دَرء الأذى والشرِّ والمكروه، وحفظ الشرف، وصون العرض وحسب، بل من أجل البقاء على قيد الحياة، ولذا فإن من أبرز ما افتخر به العبد مثلاً إجابة الداعي، ورفضُ المسترفد، وكَرُّ الجواد لإنقاذ مكروب، فهو، لتأصل حُبِّ العون والغوث والإنجاد في أعماق نفسه، ما إن يَسْمَعُ من يهتف: «ألا فتى ينجدني؟! حتى يهبَّ لتلبية النداء، وكأنه هو المَعْنِيُّ به، فقرة إحساسه بالجماعة جعلته (يشعر بأنه لا بد أن يجيب قومه حتى لو لم يدعُهم القوم، فإنَّ آيَةَ دَعْوَةٍ، وإن لم تُوجَّهْ إلى فردٍ بعينه إنما هي دعوةٌ موجَّهةٌ إليه، وإلى كل من ينتمى إلى هذا الكائن العضوي الذي هو القبيلة، وأية إشارة إلى القتال أو الفداء، وإن لم تُوجَّهْ إليه، فهي له)»^(١). وهو لا يبيت الليل في بطون الوهاد الخفيضة ليتوارى عن المنتجين والمسترفدين وطالبي العون.

* إذا القوم قالوا: من فتى؟ خلت أنني * غنيت، فلم أكسل ولم أتبلد^(٢)
 * ولست بمحلال التلاع لبيتة * ولكن متى يسترفد القوم أرفد^(٣)
 * وكري إذا نادى المضاف محبباً * كسيد الغضا، نبهته، المتورد^(٤)

ويفتخر لبيد بأنه إذا سمع صوت رجل يُبلِّغ الحَيَّ بحدث، ويحثُّ الرجال على الإنجاد، وهو ممتطٍ جواداً قد تلطخت قوائمه بالدم لخروجه من معترك، وقد رفع عقيرته بالصياح، فإنه يفرِّج كربه بضربة فاصلة من حسامه، أو طعنة واسعة من سنانه تَجُّ دماً كأنه، لكثرتة، ماءً ينثعب من فرغِ دُلُو:

(١) قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، لمحمد زكي العشماوي، بيروت: دار النهضة العربية، ١٤٠٤هـ /

١٩٨٤م، ص ١٨٢.

(٢) ديوانه، بشرح الأعلام الشتتمري، تحقيق درية الخطيب ولطفى الصقال، دمشق: مجمع اللغة العربية، ١٣٩٥هـ /

١٩٧٥م، ص ٢٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٨.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٣. المضاف: من وقع في مكروه، أو أحاط به عده يبتغون به شراً؛ محبباً: المحبب: المَعْرُوجُ

الساقين من الخيل وهو نعت مدح؛ سيد الغضا: كناية عن الذئب. المتورد: الوارد الماء.

ومبلّغ يوم النِّداء مُنْذِرٌ بِعِنانٍ دامية الفُروجِ كليمٍ
فَرَجَّتْ كربتُه بضربةٍ فيصلٍ أو ذاتِ فرغٍ بالدماءِ رُدُومٍ^(١)

فالشعر يوحى بأن الموقفَ العربيَّ الجاهليَّ نحو إجابة الداعي هو إكبار من يجب الدعوة حالما تبلغه، لا سيما إذا علم أن الداعي المستنصرَ (أخ) للقوم، أي أنه أحد أبناء الفصيلة أو الحيّ أو العشيرة... إلخ، فحبلُ العصبية مُحْكَمُ القتلِ تَشُدُّهُ الحِمِيَّةُ حِمِيَّةُ الجاهليةِ التي تُمَلِّي على المتمين لقبيلةٍ واحدةٍ والمتحالفين معها أن يهَبَّ بعضهم لإجابة دعوة بعض، وإن كان الداعي جانباً أو جائراً، ومن غير أن يطلبوا منه أن يأتِيَهُمْ على صِدْقِهِ بسلطانٍ وإن سلطاناً غير مبین. ولذلك مدح قريظ بن أنيف بني مازن في أبياته المعروفة بأنهم ينطلقون بأسرع ما في وسعهم للقتال، إذا ما نابت أحدهم نائبةٌ فاستعان بهم، من غير تثبُّتٍ أو تبَيُّن:

قومٌ إذا الشرُّ أبدى ناجذِيهَ لَهُمْ طارُوا إليه زَرَفَاتٍ ووَحْدَانَا
لا يسألون أخاهم حين يَنْدُبُهُمْ في النَّائِبَاتِ على ما قال بُرْهَانَا

ومن غير أن يسألوه حتى عن موقع القتال أو جهته لثلا يبدو منهم تَوَانٍ عن إجابته، أو رغبةً في التملُّص منها:

* بحِيٍّ إذا قِيلَ: اركبُوا، لم يَقُلْ لَهُمْ عَوَاوِيرُ يَخْشَوْنَ الرَّدَى: أَيْنَ يُرْكَبُ؟

(١) شرح ديوانه، تحقيق إحسان عباس، الكويت: وزارة الإعلام، (طبعة ثانية مصورة)، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م، ص ١١١. منْذِرٌ: مطوّل في صَوْتِهِ. بِعِنانٍ دامية الفُروجِ: أي يسيل الدم فيها بين قوائمها. كليم: جريح. فيصل: سيف فيصل، أي فاصل قاطع. ذات فرغ: طعنة واسعة الفم كأن فمها فرغ دلو، وهو إحدى قُوَاهِيةِ الأربع التي تفصل بين كلِّ منها والأخرى عَرَاقِيه (وهي الخشبستان المعروضتان على فيه). رُدُوم: سائلة. وينظر المصدر نفسه، الموضع نفسه.

وقد كرر ليبد استخدام هذا المعنى في قوله:

ودعوة مَرْهُوقٍ أَجْبَتْ، وطعنة

رَفَعْتُ بِهَا أصواتَ نوحٍ مُسَلِّبٍ

المصدر نفسه، ص ١٠. مرهوق: من رهقته الخيل.

ولكن يُجَابُ المستغيثُ وخيلُهُمْ عليها حُماةٌ بالمنية تَضْرِبُ^(١)
* إذا استنجِدُوا لم يَسْأَلُوا من دَعَاهُمْ لِآيَةِ حَرْبٍ أم بَأْيٍ مَكَانٍ^(٢)

بل إن العصبية ربما أملت عليهم أن يغضبوا لغضب (أخيهم) وبخاصة قائدهم دون معرفة دواعي غضبه، كغضب قوم مالك بن مسعم الشيباني الذي قيل فيه إنه «لو غَضِبَ لَغَضِبَ معه مائةُ أَلْفِ سَيْفٍ لا يَسْأَلُونَهُ في أَيِّ شَيْءٍ غَضِبَ»^(٣) ولا عجب أن وصف عبد الملك بن مروان سؤدد مالك هذا، لما سمع هذا الوصف، بأنه السؤدد الحق^(٤).

أَلَمْ تَرَ قَوْمِي إن دَعَاهُمْ أَخُوهُمْ أجابوا، وإن يغضب على القوم يَغْضُبُوا^(٥)

وفخر فاخرون كثر بأن قومهم يجيبون نداءهم إذا سمعوه، فيركب منهم الفرسان الكرام الأحساب، والأبطال الشداد الجرأة، الطوال السواعد، من شيب وشبان، سادة ومسودين، وقد امتشقوا سيوفهم التي تلمع لمعان البروق:
* متى أَدْعُ قَوْمِي يُجِبُّ دَعْوِي فوارسٌ هيَّجا كرامُ الحَسَبِ^(٦)

(١) البيتان للطيفيل الغنوي. ينظر ديوانه، تحقيق محمد عبد القادر أحمد، بيروت: دار الكتاب الجديد، [١٣٨٨هـ] / ١٩٦٨م، ص ٤٢.

(٢) لؤدك بن سنان بن نميل (أو نميل) المازني. ينظر مثلاً شرح ديوان الحماسة، لأحمد بن محمد المزوقي، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م ص ١٣٠.

(٣) العقد الفريد، لأبي عمر أحمد بن محمد بن عبدربه، تحقيق أحمد أمين وآخرين، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٥م، ١/ ١٣٥؛ وعيون الأخبار لأبي محمد عبدالله بن مسلم ابن قتيبة الدينوري، القاهرة: الهيئة العربية العامة للكتاب [١٣٩٣هـ] / ١٩٧٣م، ١/ ٢٢٦.

(٤) ينظر العقد الفريد، الموضع نفسه، وعيون الأخبار، الموضع نفسه.

(٥) لحرث بن محفط المازني (مخضرم). ينظر طبقات فحول الشعراء، لمحمد بن سلام الجمحي، تحقيق محمود شاكر، القاهرة: مطبعة المدني، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م، ١/ ١٩٤.

(٦) يعزى ضمن قصيدة لأبي دؤاد الإيادي الشاعر واسمه جارية بن الحجاج. راجع تلك القصيدة في ديوان حميد بن ثور الهلالي، صنعة عبدالعزيز الميمني، (نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٧١هـ / ١٩٥١م)، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ص ص ٤٢ - ٤٦ حيث ذكر المحقق أنها (مُحمَل) على أبي دؤاد.

* متى أدع منهم ناصري تأت منهم
 * وإذا دعوت بآل كندة أجفلوا
 وشباب مأسدة كأن سيوفهم
 * دعوت بني قيس إلي فشمرت
 كراديس مأمون علي خذوها^(١)
 بكهول صدق سيد وميسود
 في كل ملحمة بروق رعود^(٢)
 خناذيد من سعد طوال السواعد^(٣)

إنهم حين يسد الجبناء مسامعهم عن دعوة الصريح يهبون لنجدته، فيحملون على
 العدو حملة رجل واحد، فكأنهم بيت كبير من آدم يهوي على الأرض:
 نبذت إليهم دعوة: يال مالك! وقد جعلت آذان سعد تسدد
 هم كشفوا عني الخميس بشدة هزيم كما انقض الطراف الممدد^(٤)

وافتخر شعراء آخرون، من ناحية أخرى، بأنهم، من جانبهم، لا يتوانون عن
 إجابة نداء من يفرغ إليهم من قومهم من المستصرخين المكرويين فتساءل كل من زيد
 الخيل وحاتم بن عبدالله الطائيين الأشهرين تساؤل استنكار شديد: من يقوى على
 إغفال دعوة داعيه؟ إن من لا يحببه لخال من الرجولة والمروءة:

* وداع دعاني دعوة فأجبتُهُ وهل يدع الداعين إلا اليلندد^(٥)
 * كرتت على أبطال سعد ومالك ومن يدع الداعي إذا هو نددا؟

(١) للأعشى. ينظر ديوانه، تحقيق م. محمد حسين، القاهرة: مكتبة الآداب، [١٣٧٠هـ] / ١٩٥٠م، ص ١٧٥.

الكراديس: جـ الكردوسة، وهي القطعة العظيمة من الخيل.

(٢) لأعشى همدان. ينظر ديوانه، تحقيق د. حسن عيسى أبوياسين الرياض، دار العلوم، [١٤٠٣هـ] / ١٩٨٣م، ص ١١٣.

(٣) لقيس بن حصين بن ثعلبة. ينظر معجم الشعراء، لأبي عبدالله محمد بن عمر المرزباني، تحقيق عبدالستار فراج، القاهرة: مطبعة البابي الحلبي، [١٣٨٠هـ] / ١٩٦٠م، ص ٢٠٠. الخناذيد: الشديد الشجاعة.

(٤) لحضرمي بن عامر. ينظر كتاب الوحشيات، لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي، تحقيق عبدالعزيز الميمني، القاهرة: دار المعارف [١٣٩٠هـ] - ١٩٧٠م، ص ١٢١. تسدد: تسد بالأصابع أو غيرها حتى لا تسمع. هزيم: شديدة الهزم للأعداء، أو كأنها سحابة هزيم، وهي التي تنتشر ويكثر مطرها.

(٥) ينظر ديوان شعر حاتم بن عبدالله الطائي وأخباره، صنعة يحيى بن مدرك الطائي، تحقيق عادل سليمان جمال، القاهرة، ؟، [١٣٩٥هـ] / ١٩٧٥م، ص ٢٦٤. اليلندد: الحصم الشحيح الذي لا يرغب إلى الحق.

فَلَايَا كَرَرْتُ الْوَرْدَ حَتَّى رَأَيْتُهُمْ يَكْبُونُ فِي الصَّحْرَاءِ مَثْنَى وَمَوْجِدًا^(١)

وقد قال زيد الخيل ما قال بعد فعل إنجادي كبير فعلة إذ هب لنجدة قوم يدعون بني مالك «أغارت عليهم يوما فزارة» وبنو عبدالله بن غطفان فدعوه صائحين: «يا زيدا أغثنا!» «فكر على المغيرين عليهم واستنقذ ما أخذوه منهم. ولم يمنعه، لشهامته وشدة بسالته، أن بني مالك أولئك كانوا قد مسوه بسوء، إذ لم يرضوا أن يعطوه حق الرئاسة لما قادهم في يوم آخر سابق لقتال فزارة وبني عبدالله أنفسهم.»^(٢)

إن الكريم إذا طرق سمعه دعاء داع نزلت بساحته نازلة لا يضع أصابعه في أذنيه، بل يجيبه بالقول والفعل. ولهذا فإن عنتره بن شداد يفخر بأنه يكشف عن المكروب، إذا دعاه، ضرة بلسانه وحصانه ورمحه وسيفه. بل إن القبيلة كلها لتعلم أنه يسعد بالدعوة إلى القتال فما بالك بنصرة البائس المحاط به:

ومكروب كسفت الكرب عنه	بطعنه فيصل، لما دعاني
دعاني دعوة، والخيل ترددي	فما أدري أباسمي أم كناني
فلم أمسك بسمعي إذ دعاني	ولكن قد أبان له لساني
فكان إجابتي إياه أني	عطفت عليه خوار العنان
بأسمر من رماح الخط لذن	وأبيض صارم ذكر يئاني ^(٣)

.....

وقد علمت بنو عيس باني أهش إذا دُعيت إلى الطعان^(٤)

(١) الأغاني، لعلي بن الحسين الأصبهاني، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، [١٣٩٨هـ] / ١٩٧٠م، ٢٦٢/١٧.

و«شعر زيد الخيل الطائي» لأحمد مختار البزرة، دمشق / بيروت، دار المأمون، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م، ص ٩٧. وفي المصدر الأخير (ومثل دعا الداعي إذا هو نذدا).

(٢) الأغاني، الموضع نفسه.

(٣) ديوانه، تحقيق محمد سعيد مولوى، دمشق: المكتب الإسلامي ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م، ص ٩٤ وما بعدها.

(٤) نفسه، ص ٢٩٦.

وافتحخر الفرزدق بأنه أسرع ملبياً دعاءً داعٍ مكبِّلٍ بالقيود دعاه ليدفع (حمالةً) عنه لأنه قتل ابن عم له، فكان يصيح: «يا غالباه!»^(١) يا فرزدقاه! فخرج وعرض على أهل القَتِيلِ الدِّيَةِ (فأَبَوْا وقالوا: واللَّهِ ما تَمْلِكُ غيرَ إزارِكَ فكيف نَضْمُنُكَ؟ فقال: هذا لَبَطَةٌ (يعني ابنه) رهناً في أيديكم. فأَبَوْا) وقتلوا القاتل.

وقد أعذر الفرزدق إذ بذل ما في وسعه لإنقاذ الرجل حتى بذل ماله وابنه ليكون رهينة حتى يفي لهم بما أخذ على نفسه أداءه لهم من مال. لكن ماذا بوسعه أن يصنع إذا كان حين الرجل قد حان، وقد بذل في سبيل دفعه كل مرتخصٍ وغال؟:

ولما دعاني، وهو يرُسْفُ، لم أكن بطيئاً عن الدَّاعي ولا مُتَوَانِيَا
شَدَدْتُ على نِصْفِي إزارِي، ورُبَّما شَدَدْتُ لِأَحْدَاثِ الْأُمُورِ إزارِيَا
دعاني، وحَدُّ السيف قد كان فوقه، فأعطيت منه ابني جميعاً ومالياً
ولم أر مثلي إذ ينادي ابنُ غالبٍ مجيئاً، ولا مثل المُنَادِي مُنَادِيَا
فما كان ذنبي في المَنِيَّةِ إذ عَصْتُ ولم أترك شيئاً عزيزاً ورَائِيَا؟^(٢)

والحق أن تلبية نداء الداعي، والسَّعْيَ لكشف الضرِّ عن المستصرخ من خلائِقِ الفرزدق. وقد تباهى مرةً بأنه وقومه يُنْفُسُونَ بخيلهم عن كل مكروب و(يَدْفَعُونَ) بهن (كَرَبَ كُلِّ مُثَوِّبٍ)^(٣)، وليس ادِّعَاؤُهُ هذا بالباطل، ويؤكد ذلك الخبر الآخر التالي:

(١) ديوان الفرزدق، بيروت: دار صادر / دار بيروت، ١٣٨٥هـ / ١٩٦٦م، ٣٥٩/٢. «واغالباه» يندب الرجل القاتل غالباً أبا الفرزدق، أملاً أن يعلم الفرزدق باستنجاهه بأبيه الشهير بالإنجاد فينجده، ويبين ذلك الخبر الذي يليه حول قتل ابن مسلم بن جبير المجاشعي لابن عم له، فهو لا يريد الاستغاثة بميت، كما قد يتبادر إلى الذهن.

(٢) نفسه، ٣٥٩/٢ والتي تليها.

(٣) من قوله:

وَيَهْنُ نَذْعُ كَرَبٍ كُلِّ مُثَوِّبٍ

وتسرى لها خدداً بكلِّ جمال

قَتَلَ ابْنُ لَرَجَلٍ مَجَاشَعِيٍّ (من قوم الفرزدق) يدعى «مُسْلِمَ بْنَ جُبَيْرِ الأَبْيَضِيِّ» ابْنَ عَمِّ لَهْ، فَأَتَى مُسْلِمٌ مُعَاوِيَةَ يَسْتَحْمِلُهُ دِيَةَ ابْنِ أَخِيهِ عَنْ ابْنِهِ، فَلَمْ يَحْمِلْ لَهْ، وَقَالَ: «يَنْبَغِي أَنْ يَقَادَ ابْنُكَ بِابْنِ أَخِيكَ»، وَأَتَى مُرَوَّانَ فَأَجَابَ بِنَحْوِ مَا أَجَابَ بِهِ مُعَاوِيَةَ. فَظَلَّ مُسْلِمٌ كُلَّمَا سَارَتْ حَنْظَلَةٌ مُتَتَجِعَةً عَلَا مُرْتَفِعاً وَنَادَى: «يَا آلَ حَنْظَلَةَ! أَلَا فَتَى يَحْمِلُ لِي دَمَ ابْنِ أَخِي؟ يَا آلَ مَالِكِ! أَلَا فَتَى يَعْقِلُ دِيَةَ ابْنِ أَخِي؟ يَا آلَ دَارِمِ!.. يَا آلَ مَجَاشِعِ!..» وَظَلَّ عَلَى هَذَا الْحَالِ حِينًا، فَلَا يَجِيبُهُ أَحَدٌ. فَقَالَتْ لَهُ عَجُوزُ بَيْتِهَا قَرِبَ ذَلِكَ الْمُرْتَفِعِ: «وَيْلَكَ يَا ابْنَ جُبَيْرِ! إِنَّهُ قَدْ طَالَ اسْتِحْجَالُكَ قَوْمَكَ عَقْلَ ابْنِ أَخِيكَ! إِنِّي أَدْلُكَ عَلَى شَيْءٍ إِنْ أَنْتَ فَعَلْتَهُ جُهِلَ لَكَ دَمُ ابْنِ أَخِيكَ. قَالَ: هَاتِي. قَالَتْ: إِنَّتِ الْمَقْرَّةُ^(١) فَعُذُّ قَبْرِ غَالِبٍ، فَلَوْ كَانَتْ عَشْرَ دِيَّاتٍ لَتَحْمَلَهَا لَكَ ابْنُهُ الْفَرَزْدَقُ إِذَا بَلَغَهُ ذَلِكَ.

فَجَاءَ حَتَّى ضَرَبَ إِلَى جَنْبِ قَبْرِ غَالِبِ خِبَاءً، ثُمَّ جَعَلَ يَهْتَفُ وَيَقُولُ: «يَا غَالِبُ! إِنِّي عَائِذُ بِكَ لِتَحْمِلَ عَنْ ابْنِي دَمَ ابْنِ أَخِي».

وَجَعَلَ الْمَسَافِرُونَ يَمُرُّونَ بِهِ فَيُرُونَ مَا يَصْنَعُ، فَلَمَّا وَرَدُوا الْبَصْرَةَ خَبَرُوا الْفَرَزْدَقَ فَجَعَلَ يَلْتَبِي، وَلَا يَلْحَقُ خَارِجًا مِنَ الْبَصْرَةِ إِلَى كَاطِمَةَ إِلَّا قَالَ لَهُ: قُلْ لِمُسْلِمٍ: إِنْ دِيَةَ ابْنِ أَخِيكَ إِلَيَّ فَهَلُمَّ! فَأَبْلَغُوهُ ذَلِكَ، فَأَقْبَلَ إِلَى الْفَرَزْدَقِ، فَضَمَّنَهَا لَهُ مَائَةَ بَعِيرٍ، وَحَمَلَهَا الْحَكَمُ الْأَبْيَضِيُّ، وَكَانَ أَكْثَرُ بَنَى مَجَاشِعَ مَالًا.^(٢)

وَلَمْ يَدْعِ الْفَرَزْدَقُ هَذَا الصَّنِيعَ، كَمَا هُوَ مُتَوَقَّعٌ، يَمْضِي دُونَ تَسْجِيلِ لَهْ، فَقَالَ قَصِيدَةً رَسَمَ فِيهَا صُورَةَ لِمُسْلِمِ بْنِ جُبَيْرٍ وَابْنِهِ حِينَ كَانَا فِي أَشَدِّ شِدَّةٍ إِذْ وَقَفَ مُسْلِمٌ بَيْنَ قَوْمِهِ يَبْكِي وَيُنَاشِدُهُمْ كَافَّةً، عَلَى تَبَايُنِ أَنْصِبَتِهِمْ مِنَ الْحَسَبِ، أَنْ (يُرَافِقُوا خِنَافَهُ، وَيُطْلِقُوا وَثَاقَهُ) فَهُوَ كَمَنْ شَدَّ عُنُقَهُ بِحَبْلِ، أَوْ أَسْرَ، لِأَنَّهُ بَيْنَ أَمْرَيْنِ أَحْلَاهُمَا مَرًّا: غَرْمٌ

(١) «الْمَقْرَّة»: اسم جبل كان فيه قبر غالب بن صعصعة أبي الفرزدق ينظر، مثلاً، معجم البلدان، لياقوت بن عبد الله

الحموي، بيروت: دار صادر ١٣٩٧/١٩٧٧ م، ١٧٥/٥.

(٢) الخبر عن الديوان، ١٩٧/٢ بتصرف يسير.

مالٍ كثيرٍ لا يجده، أو قُتلَ ابنه. فأشاروا عليه بأن يستنجد بقبر غالب بن صعصعة لِيَبْلُغَ ابْنُهُ استنجاهَهُ لِيَبْتَلَّ فوه بريقَهُ بعد جفافه. فما عَتَمَ أن صنع ذلك فمضى إلى القبر عند جبل (المِقْرَ) في كاظمة واستجار بصاحبه، ودعا الفرزدقَ على مقربة منه.

وافتخر الفرزدقُ بأنه ما إن علم بما صنع مسلم حتى استجاب لندائه فضمن له نياحة عن غالبٍ أبيه مائة ناقة حقن فيها الدَّم، وأعاد السكينة إلى نفس الطريد، وأرضى صاحبَ الدَّمِ الممتلىءَ ضِعْفاً:

بكى بين ظَهْرَي رَهْطِهِ بعدما دعا ذوى المَخِ من أحسابهم والمَطْعَمِ^(١)
فقال لهم: راخوا خِناقِي، وأطْلِقُوا وَثاقِي، فَإِنِّي بَيْنَ قَتْلِ وَمَغْرَمِ
فقالوا: اسْتَغِثْ بالقبر، أو أَسْمَعْ ابْنَهُ دَعَاكَ يَرْجِعَ رِيقُ فَيْكَ إِلَى الفَمِ

.....

دعا بين آرَامِ المِقْرِ ابْنَ غالبٍ وعاذ بقبرِ تحته خَيْرُ أَعْظَمِ^(٢)
فقلت له: أَقْرِيكَ عن قبرِ غالبٍ هُنَيْدَةَ إِذْ كَانَتْ شِفَاءً مِنَ الدَّمِ^(٣)
ينام الطَّرِيدُ بعدها نَوْمَةَ الضُّحَى ويرضى بها ذُو الإْحْنَةِ المِتْجَرِّمِ

(١) «المطعم» من «المطعم من الإبل» وهو «الذي تجد في لحمه طعم الشحم من سِمَنِهِ» ينظر اللسان (ط ع م).

(٢) لم يُرد الفرزدق هنا أن الرجل عاذ بغير الله، والعياذ بالله!، بل أراد أنه استعاذ بالقبر، وهو يعلم أنه لا ينفع ولا يضر، ليستثير همة ابن صاحبه الفرزدق (الحي) لعله يضمن عن أبيه ما كان اعتاد ضمانه في حياته، كما هو جليُّ من السِّياق. والاستجارة بقبر أبي الرجل أو أحد أجداده من تقاليد الإجارة المتعارف عليها عند العرب. ينظر مثلاً الكامل، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ٣٥٩/١، حيث أورد خبراً فيه استجارة رجلٍ من بني أبي بكر بن كلاب بقبر أبي عمير بن سلمى الحنفي، لكي ينصفه عميرٌ ويدَّعُه يَقْتُلُ أخاه الذي قتل أخاً للكلابي. ففعل عمير ذلك وقال:

قتلنا أحناءاً للوفاء بجازنا وكان أبونا قد تحير مقابره
وراجع أيضاً العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، لإحسان النص، بيروت: دار الفكر، ١٩٧٣م، ص ٨٨.

(٣) هنيذة: مائة من الإبل.

وَلَمْ أَرِ مَدْعُوَيْنِ أَسْرَعَ جَابَةً وَأَكْفَى لِرَاعٍ مِنْ عَبِيدٍ وَأَسْلَمٍ^(١)

وإذا كان هؤلاء الشعراء، وكثيرون غيرهم، سجلوا ناطقين بضمير الفرد تلبيتهم دعاء داعيهم، وإسراعهم إلى عونهِ وغوثهِ، كما سجلوا تلبية جماعاتهم لندائهم، ومسارعتها إلى التنفيس عنهم من كربهم، وتخليصهم مما أحرق بهم، ذلك لأن حبل العصبية كما أشرنا شديد الإحكام. إذا كان ذلك كذلك، فإن كثيرين من الشعراء أيضاً تحدثوا بضمائر جماعاتهم وبلسانها فسجلوا، مباينين، إجابتها دعوة داعيها كائناً من كان، لعونه على كشف نازلة كَصَدِّ مُعْتَدٍ، أَوْ رَدِّ سَبَاءٍ، أو استعادة تِلَادٍ سَلِيبٍ.

وربما كانت صيحة الاستصراخ صيحة حَرْبٍ تُسْتَارُ بِهَا الْحِمِيَّةُ فِي دِمَاءِ الرِّجَالِ، فَتُشَبُّ فِيهِمْ نَارُ الْحِمَاسَةِ، فيتقاطرون نحوها من كل جهة، وقد أخذوا أهبتهم للقتال، فاقتعدوا سُرُجَ جِيَادِهِمْ، أَوْ رِحَالَ مَطِيئِهِمْ، مُقْنَعِينَ شَاهِرِينَ الْهِنْدِيَّةَ الْقُضْبَ، هَازِينَ الْخَطِيئَةَ السُّمْرَ:

* إِذَا فَزَعُوا طَارُوا إِلَى مُسْتَغِيثِهِمْ طَوَالَ الرِّمَاحِ ، لَا قِصَارَ وَلَا عَزْلَ
بِخَيْلٍ عَلَيْهَا جَنَّةٌ عَبْقَرِيَّةٌ جَدِيرُونَ يَوْمًا أَنْ يَنَالُوا وَيَسْتَعْلُوا^(٢)
* كُنَّا إِذَا مَا أَتَانَا صَارِخُ فَزَعٍ كَانَ الصُّرَاخُ لَهُ قَرَعُ الظَّنَابِيبِ
وَشَدَّ كُورٍ عَلَى وَجَنَاءَ نَاجِيَةٍ وَشَدَّ سُرُجٍ عَلَى جَرْدَاءِ سُرُحُوبٍ^(٣)
* وَإِذَا يُثَوِّبُ صَارِخُ مُتَلَهِّفٍ وَعَلَا غِبَارٌ سَاطِعٌ بِعِمَادٍ

(١) ديوانه، ١٩٨/٢، غُبَيْدٌ وَأَسْلَمٌ: رجُلَانِ يَضْرِبُ بَهِمَا الْمَثْلَ فِي سُرْعَةِ إِجَابَةِ الدَّاعِي.

(٢) لزهير. ينظر شرح ديوانه، صنعة أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب، القاهرة: الدار القومية للنشر، (مصور عن طبعة دار الكتب سنة ١٣٦٣هـ / ١٩٤٤م)، ص ١٠٢.

(٣) لسلامة بن جندل. ينظر ديوانه، تحقيق فخر الدين قبادة، حلب: المكتبة العربية، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م.

ص ص ١٢٥ و ١٢٩. والمفضليات، للمفضل بن محمد الضبي، تحقيق عبدالسلام هارون، القاهرة: دار

المعارف، ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م، ص ١٢٤.

رَكِبْتَ إِلَيْكَ نَزَائِعُ مَلْبُونَةٍ قُبُ البُطُونِ يَجْلُنُ فِي الْأَبَادِ^(١)
 * وَيَوْمَ يَطِيرُ الْقَلْبُ مِنْ نَقَرَاتِهِ رَبَطْنَا لَهُ جَاشاً وَهَجْنًا بِهِ دَمًا
 دَعَوْنَا إِلَيْهِ مِنْ تَمِيمٍ مَعَاشِرًا يُجَيِّبُونَ دَاعِيَهُمْ وَإِنْ كَانَ مُجْرِمًا^(٢)
 * إِذَا مَا سَمِعْنَا صَارِخًا مَعَجَتْ بِنَا إِلَى صَوْتِهِ وَزُقُ الْمَرَائِلِ ضُمُرُ^(٣)
 * أَتَانَا بِالْعَقِيقِ صَرَخُ كَعْبٍ فَحَنَ النَّبْعُ وَالْأَسْلُ النَّهَالُ
 ثَلَاثًا ثُمَّ وَجَّهْنَا إِلَيْهِمْ رَحَى لِلْمَوْتِ لَيْسَ لَهَا ثِقَالُ^(٤)

وإلى جانب الفخر بإجابة المرء دعوة قومه وإجابتهم دعوته، والفخر بالجماعة الملبية لنداء داعيها، ومدحها، يسجل الشعر مدح الفرد الملبى لدعوة فرد أو جماعة، الناصر لاستصراخ مستنجد مكروب. فالشمردل بن شريك اليربوعي، وهو شاعر أموي، يرثي أخاه واثلاً فيؤكد أن كلاً منها يجيب دعاء الآخر إذا دعاه أينما كان، وفي أي حال كان:

أَخْ لِي لَوْ دَعَوْتُ أَجَابَ صَوْتِي وَكُنْتُ مُجِيبَهُ أَنَّى دَعَانِي^(٥)
 وامرأة طائية رثت ابناً لها فذكرت من مناقبه وخصاله الحسنى إجابته من يدعوه متى دعاه، حين تصم الأذان عن إجابة داعيها لعسر تبعة تلك الإجابة:

(١) للأعشى. ينظر ديوانه، ص ١٣٣. نزاع: جـ نزيع، وهو الفرس الكريم. ملبونة: تُسقى اللبن لكرامتها على أهلها.

(٢) لنافع بن الأسود التميمي (إسلامي). ينظر مثلاً «شعراء إسلاميون» لنوري حمودي القيسي، بيروت: عالم الكتب / مكتبة النهضة العربية ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٤ م، ص ١٠١.

(٣) لزهير، ينظر شرح ديوانه، ص ٢١٥. معجّت بنا: مرّت بنا مرّاً سريعاً. وزُقُ المَرَائِلِ: خيل أضحت مواضع ركّل الفرسان في جنوبها وزُقُ الألوان لأن الشعر أنحت عنها.

(٤) للتحيف العقيلي. ينظر مثلاً طبقات فحول الشعراء، ص ٣٩٣، وشعراء بني عقيل وشعرهم لعبد العزيز بن محمد الفيصل، الرياض (٩)، ١٤٠٨ هـ / [١٩٨٨ م]، ١٤٢/٢. الثقال: جلد ييسط فتوضع عليه الرّحى ليسقط الدقيق عليه.

(٥) الأغاني، ٣٥٦/١٣.

مَتَى يَدْعُهُ الدَّاعِي إِلَيْهِ فَإِنَّهُ سَمِيعٌ، إِذَا الْأَذَانُ صُمَّ جَوَابَهَا^(١)

ودريد بن الصِّمَّة عزا فنَاءَ شَبَابِهِ، وَوَهَنَ جَسَدُهُ قَبْلَ إِبَانِهِ، إِلَى مُضِيِّهِ لِإِجَابَةِ مَنْ
يَدْعُوهُ، وَمَشَارَكَتِهِ فِي إِنْجَادِهِ. وَعَاتِقُهُ الْقَارِخُ، لكَثْرَةِ مَا عُلِقَ بِهِ نِجَادُ السَّيُوفِ، عَلَى
مَا قَالَ شَهِيدٌ:

أَعَاذَلْ إِنَّمَا أَفْنَى شَبَابِي رَكُوبِي فِي الصَّرِيخِ مَعَ الْمُنَادِي
مَعَ الْفِتْيَانِ حَتَّى كُلِّ جَسْمِي وَأَفْرَحَ عَاتِقِي حَمْلُ النِّجَادِ^(٢)

وَأَثْلَةُ بَنِ الْمُتَنَحِّلِ الْهَذَلِيِّ يَوْصَفُ، فِي رِثَاءِ أَبِيهِ لَهُ، بِأَنَّهُ يَجِيبُ مَنْ يَدْعُوهُ بَعْدَ النَّوْمِ،
عَلَى مَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَشَقَّةِ وَالْعُسْرِ، بِقَوْلِهِ: «لَبَّيْكَ!» فَلَا يَتْرَكُ نَفْسَهُ عَلَى هَوَاهَا، بَلْ
يَعْصِي هَوَاهُ عَصِيَانًا جَازِمًا، وَيَمْضِي نَحْوَ الْمُسْتَعِثِّ بِهِ:

يُجِيبُ، بَعْدَ الْكَرَى،: «لَبَّيْكَ» دَاعِيَهُ مَجْدَامَةً هَوَاهُ قُلُقُلٌ وَقِلٌ^(٣)

وَيَمْدَحُ الْخَطِيئَةَ بَنِي عَدِي مَدْحًا جَمِيلًا نَاعَتًا إِيَاهُمْ بِأَنَّهُمْ يَجِيبُونَ مَنْ يَدْعُوهُمْ مِنْ
غَيْرِ أَنْ يَسْأَلُوهُ سَوْأَلًا وَاحِدًا عَنْ سَبَبِ اسْتِصْرَاحِهِ بِهِمْ، وَمَا يَبْغَى مِنْهُمْ، وَكَيْفَ
يَعِينُونَهُ، وَنَحْوِ هَذَا مِنْ أَسْئَلَةٍ قَدْ يَعُودُ بِهَا مِنْ يَشَاءُ التَّنَصُّلِ مِنْ وَاجِبِهِ الْجَلَلِ. كَمَا لَمْ
يَجِيبُوهُ، وَقَدْ اسْتَحْذَوْ عَلَيْهِمُ الْفَرَقُ، بَلْ انْبَعَثُوا كَأَنَّهُمُ الطَّيْرُ إِلَى (الْجُرْدِ الْعِتَاقِ) مِنْ
جِيَادِهِمْ فَأَلْجَمُوها وَأَسْرَجُوها، وَارْتَدَوْا بِزَاتِ الْقِتَالِ، وَاحْتَرَمُوا وَهَبُوا لِإِنْجَادِهِ:

وَفِتْيَانِ صَدَقَ مِنْ عَدِيٍّ عَلَيْهِمْ صَفَائِحُ بُصْرَى عُلِقَتْ بِالْعَوَاتِقِ
إِذَا مَا دُعُوا لَمْ يَسْأَلُوا مِنْ دَعَائِهِمْ وَلَمْ يُمْسِكُوا فَوْقَ الْقُلُوبِ الْخَوَافِقِ
وَطَارُوا إِلَى الْجُرْدِ الْعِتَاقِ فَأَلْجَمُوا وَشَدُّوا عَلَى أَوْسَاطِهِمْ بِالْمَنَاطِقِ

(١) شرح ديوان الحماسة، ص ١١٠٤.

(٢) الأغاني، ٢٦/١٠.

(٣) شرح أشعار الهذليين، صنعة أبي سعيد الحسن السكري، تحقيق عبدالستار فراج، القاهرة: مكتبة دار

العروبة، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٥م، ص ١٢٨٣.

أولئك آباء الغريب، وغائّة الصّـريخِ ، ومأوى المُرملين الدّرّادق^(١)
ومن أوصاف الشّاء التي أسبغها الخطيئة على ممدوحه المعروف بغيضِ بنِ شَاسِ
القرّيعي إجابة دعاءِ الشاعر لما دعاه لينصره حين ألّت به مُلِمّةٌ فادحة فضاق بها ذرعاً،
وعَيّ بالخلاص منها:

وَمُعْضِلَةٌ تَضِيقُ بِهَا ذِرَاعِي وَيُعْوزُهَا التَّحَفُّزُ وَالْبَلَاءُ
فَلَمَّا أَنْ دَعَوْتُ لَهَا بَغِيضاً أَتَانِي حِينَ أَسْمَعُهُ النِّدَاءَ^(٢)
إن شأن الإغائّة عند العرب، كما يُبديه تراثُهم الشعريّ، لذو خطرٍ أَجَلْ، فما أكثر
مدح المغيث الواري الزّنادِ في نفسه، الذي تري به زنادٌ سواه^(٣)! وما أكثر التّفاخر
بتنفيس الكرب عن مكروب بائس! فالخنساء في ترديدِها الدائب لمناقب صخر أخيها
تعزو إليه إنقاذ أعداد كثيرة من المكروبين من موت رأوه رأي العين، لما نادَوْهُ، والليل
ساج:

كَمْ مِنْ مُنَادٍ دَعَا وَاللَّيْلُ مُكْتَنِعٌ نَفَسَتْ عَنْهُ جِبَالُ الْمَوْتِ مَكْرُوبٍ!^(٤)
ولما استنجد سبيع بن الخطيم التّيمي، لما سُلِبَتْ إبلُهُ، يزيد بن حصين الضّبيّ
الملقب بزيد الفوارس، هبّ زيد وقومه لنجدته واستنجدوا الإبل وردّوها إلى سبيع.
ولذلك نعت سبيع زيدا بأنه رجل غير واهنٍ صديء السلاح متّسخه من بعد عهده
بالاستعمال. كما أثنى على سرعة استجابة رهط زيدٍ لِزَيْدٍ لما ناداهم لنصر سبيع، فقد
جرت بهم الأرض وكأنهم سيل:

(١) ديوانه، تحقيق نعيان أمين طه، القاهرة، شركة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٧٨هـ / ١٩٥٨م، ص ٣٩٤.
الدّرّادق: الصبيان الصغار.

(٢) مختارات ابن الشجرى (هبة الله بن علي العلوي)، تحقيق علي محمد البجاوي، القاهرة: دار نهضة مصر،
١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م، ص ٤٤١. وثاني البيتين في ديوانه، ص ١٠٣. وروايته فيه:

ولما أن دَعَوْتُ أَخِي بَغِيضاً أَتَانِي حَيْثُ أَسْمَعُهُ النِّدَاءَ

(٣) يقال لذي المروءة المنجد «واري الزّناد». وتقول لمن أنجذك «وَرَّتْ بِكَ زِنَادِي». والزّناد: جد الزّند وهو (العود
الأعلى الذي تُقْتَدَحُ به النّار... وقيل إنه يستخدم مفرداً كزّند أيضاً). ينظر اللسان: (زن د).

(٤) ديوانها، بيروت: دار صادر، (د. ت)، ص ١٤.

نَبَّهْتُ زَيْدًا فَلَمْ أَفْزَعْ إِلَى وَكَلٍ رَثَّ السِّلَاحَ، وَلَا فِي الْحَيِّ مَكْثُورٍ
 إِنَّ ابْنَ آلِ ضِرَارٍ حِينَ أَنْدَبُهُ زَيْدًا سَعَى لِي سَعِيًّا غَيْرَ مَكْفُورٍ
 سَأَلْتُ عَلَيْهِ بَرَأقَ الْحَيِّ حِينَ دَعَا أَنْصَارُهُ بِوُجُوهٍ كَالدَّنَانِيرِ^(١)
 ونعت أبوزيد الطائي ابن أخت له كان يُدعى «اللَّجَلَجَل» بنعوت منها إنقاذه
 المكروبين الذين غالباً ما وجد أحدهم نفسه وقد غشيه العدو، أو بات وسط ملحمة
 القتال، قد بلغ منه الضنى مبلغه (فَخِيلَ مِنْ شِدَّةِ التَّعْيِيسِ مَبْتَسِمًا)، وبردت
 أطرافه، وكان وحيداً فريداً بعيداً عمن يرجون نصرهم من آل وذوي رحم. فلما سمع
 اللجلاج دعوته التي كادت تحتق في زوره هب إليه وأنقذه بطعنة شاققة اللحم، أو
 ضربة قاضية!:

رُبَّ مُسْتَلْحِمٍ عَلَيْهِ ظِلَالُ الْ مَوْتِ، هَفَانَ جَاهِدٍ مَجْهُودٍ
 خَارِجٍ نَاجِذَاهُ قَدْ بَرَدَ الْمَوْتُ عَلَى مُصْطَلَاهُ أَيُّ بُرُودٍ
 غَابَ عَنْهُ الْأَدْنَى وَقَدْ وَرَدَتْ سُمُ رُ الْعَوَالِي إِلَيْهِ أَيُّ وُرُودٍ
 فِدْعَا دَعْوَةِ الْمُخَنَّقِ وَالْتَلَّ جِيبَ مِنْهُ فِي عَامِلٍ مَقْصُودٍ
 ثُمَّ أَنْقَذَتْهُ، وَنَفَّسَتْ عَنْهُ بَغْمُوسٍ، أَوْ ضَرْبَةٍ أُخْدُودٍ^(٢)
 كما نعت قيس بن العيزارة الهذلي أخاه الحارث بن خويلد بأنه يحمي المكروب
 الذي أحرق به الشر من كل صوب في وسط المعركة حين يفر الجبان مما يرى من طعن

(١) ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، لمحمود بن عمر الزخشري، تحقيق سليم النعمي، بغداد: مطبعة العاني، [١٣٩٦هـ] / ١٩٧٦م، ٤٠٤/١ وما بعدها (من غير الثاني)، وموسوعة الشعر العربي، لمطاع صفدى وإيليا حاوي، بيروت: شركة خياط للكتب والنشر [١٣٩٤هـ] / ١٩٧٤م، ٥٢٢/٣.

(٢) جهرة أشعار العرب، لمحمد بن أبي الخطاب القرشي، تحقيق محمد علي الهاشمي، الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م، ص ٧٣٣ والتي تليها. مستلحم: المستلحم الواقع في (ملحمة) القتال، أو الذي أدرك وغشيه الطلب، أو الذي قُطِعَ بالسيوف. جاهد: باذلُ جُهدِهِ. مجهود: بلغ منه الجُهد مبلغه. مصطلاه: يداه ورجلاه ووجهه وكل ما يبرز منه. مُحَنَّقٌ: مَخْنُوقٌ. التَّلييب: النحر. غموس: طعنة واسعة تنفذ في اللحم وتنغمس فيه. عامل مقصود: عامل رمح مكسور.

الرماح وضرب السيوف، ويدفع عنه دفعا ضاريا كما تدفع لَبْوَةٌ عن شبلها فتظل تدور حواليه فلا تَدْعُ عدوًّا يدنو منه:

وَإِذَا جَبَانَ الْقَوْمَ صَدَّقَ نَفَرُهُ حَبْضُ الْقِسِيِّ وَضَرْبَةُ أَخْدُوْدُ
أَلْفَيْتُهُ يَحْمِي الْمُضَافَ كَأَنَّهُ صَبْحَاءُ تُحْمِي شَبْلَهَا وَتُحْيِدُ^(١)

ولما قتل الخَزْرُ، في أيام هشام بن عبد الملك، الجَرَّاح بن عبد الله الحكمي، أحد قادة الفتح الإسلامي رثاه الفرزدق فَنَعَتَهُ بنعوت في مقدمتها إغاثة المستصرخ الذي رأى حياض الموت عيانا. . . مثل ذلك المستنجد يكون على يقين، إذا دعا، بأنه سيمنعه، لأن الخوف لا يعرف إلى جَنَابِهِ سبيلا:

وَكَانَ إِلَى الْجَرَّاحِ يَسْعَى إِذَا رَأَتْ حِيَاضَ الْمَنَايَا عَيْنُهُ كُلُّ جَارِمٍ
وَقَدْ عَلِمَ السَّاعِي إِلَيْهِ لِيَعْطِفَنَّ لَهُ حَبْلَ مَنَاعٍ مِنَ الْخَوْفِ سَالِمٌ^(٢)

ولما أراد الفرزدق الثناء على هلال بن أحوز المازني، قائد الجيش الذي وجهه مسلمة بن عبد الملك لإخماد ثورة المهلبين، بسرعة إجابة الداعي، صَوَّرَ خيله وهي تَعْدُو إثر استصراخ الداعي وكأنها كلابٌ صَيِّد:

حَوَافِي يُحْدِثِينَ الْحَدِيدَ كَأَنَّهَا إِذَا صَرَخَ الدَّاعِي كِلَابُ سَلُوقٍ^(٣)
كَمَا إِنَّ مِمَّا أَثْنَى بِهِ هَذَا الشَّاعِرُ عَيْنَهُ عَلَى بِلَالِ بْنِ أَبِي بَرْدَةَ أَنَّهُ، كَمَا قَالَ، إِنَّ دَعَا
أَجَابَتْ دَعْوَتَهُ الرِّجَالُ الْيَمَانُونَ مِنْ شَيْبٍ وَشِبَانٍ، وَأَنَّهُ لَا يَدْعُ دَعْوَةً إِلَّا وَجَّيْهَا سَوَاءً
أَكَانَتْ لِلْإِسْتِقْرَاءِ (طَلَبِ الْقَرَى) وَالْإِضَافَةِ أَمْ لِلطَّعَانِ وَالنِّزَالِ فِي الْمِيدَانِ. فَهُوَ سَرِيعُ
الْقِيَامِ لَتَلْبِيَةِ كُلِّ مِنَ الدَّعَوَتَيْنِ، وَهُوَ قَدْ وَرَثَ هَذِهِ السَّجِيَّةَ السَّجِيحَةَ عَنْ أَبِيهِ الَّذِي
كَانَ يَزَعُهُ حَيَاؤُهُ عَنْ أَنْ يَخْذُلَ مُسْتَغِيثًا اسْتَصْرَخَهُ فِي يَوْمٍ قُرٍّ، فَكَانَ يَكْرِ خَلْفَهُ عَلَى
صَهْوَةِ جَوَادِهِ إِلَى أَنْ يَنْفَسَ عَنْهُ:

(١) شرح أشعار الهذليين، ص ٥٩٨ والتي تليها. الحَبْض، بياء موحدة: صوت الوَتَر. صَبْحَاء: لَبْوَةٌ صَبْحَاء، وهي البيضاء في حمرة.

(٢) ديوانه، ٢/٢٣٩.

(٣) نفسه، ٢/٣٦.

سريع إلى كَفِّي بلالٍ إذا دعا
وما دعوة تدعو بلالاً إلى القرى
سريع إلى هذي وهذي قيامه
كما كان يستحي أبوه إذا دعا
يَكُرُّ وَرَاءَ الْمُسْتَغِيثِ إذا دعا
من اليمين الشُّبَّانُ منها وشيها
ولا الطُّعْنُ يوم الرُّوعِ إِلَّا يُجِيهَهَا
إذا صدقت نفس الجبان كذوبها
له مستغيث حين هرَّ كليلها
بنفس وقورٍ لا يُخَافُ وَجِيهَهَا^(١)

ثانياً: إغاثة المستنجدات:

ولئن كانت الإغاثة، بصفة عامة، من أجل القيم الخلقية شأنًا في العين العربية، كما يدل عليه الشعر القديم، فإن آكد الإغاثات وأولاها بالإجابة العاجلة الفاعلة إغاثة النساء المستنجدات، وذلك، كما لا يخفى، لفرط حرص العربي على (حرمه)، وأنفته من أن يمسهن أيُّ ماسٍ، أو يعرض لهن ما لا قبل لهن به، لا سيما سي الأعداء لهن، لما في ذلك من جرح لعزته، وهتك لشرفه. فلا غرو، والشأن هذا، أن يُعْلَى العربي شأن الذاب عنهن، المنبري للدفع عنهن إجابة لاستغاثتهن. ولهذا افتخر حمصيص بن جندل بأن قومه بني أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان ما إن يسمعوا صيحة الداعي حتى يتجمعوا من كل وجه ويحيطوا بنسائهم للحيلولة بينهن وبين الأعداء: وإذا دعوت بني ربيعة أقبلوا بكتائبٍ دون النساء تَلْمُؤُ^(٢) وما أثنى به لبيد على أخيه لأمه أربد بن قيس، في رثاء له فيه، أنه ينجي النساء يوم الفزع حين يُذهلن الهول عن تغطية سوقهن فتبدو خلاخيلهن، ويتصدى للأعداء الذين أرادوا سبيهن فيشردهم ويقتلهم:

(١) نفسه، ٦٩/١.

(٢) من أبيات له في الفاخر للمفضل بن سلمة بن عاصم، تحقيق عبد العليم الطحاوي، القاهرة: مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م، ص ٢٦٠؛ والأنوار ومحاسن الأشعار لعلي بن محمد الشمشاطي، تحقيق محمد يوسف، الكويت: وزارة الإعلام، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م، ١٠٢/١، وفي المصدر الأخير: (وإذا دَعَوْا بآبي ربيعة)؛ وفيه (حمصيص بل شراحيل بن جندل).

إِذَا بَكَرَ النِّسَاءَ مُرَدَّفَاتٍ حَوَاسِرَ لَا يَجِئْنَ عَلَى الخِدَامِ

.....

فَوَاءَلْ يَوْمَ ذَلِكَ مَنْ أَتَاهُ كَمَا وَأَلَّ الْمُحِلُّ إِلَى الْحَرَامِ
بِضْرَبَةٍ فَيُصَلِّ تَرَكْتُ رَئِيساً عَلَى الْخَدَّيْنِ يَنْحِطُ غَيْرَ نَامٍ^(١)

وأثنى عبدالله بن جَذَلِ الطَّعَانِ عَلَى رُبِيعَةَ بْنِ مُكَدَّمٍ لِتَخْلِيصِهِ، فِي حَادِثَةٍ شَهِيرَةٍ،
نِسْوَةً مِنْ قَوْمِ عَبْدِ اللَّهِ فِيهِنَّ أُمَّةٌ وَأَخْتُهُ، وَهُوَ طَعِنٌ يَنْزِفُ جَرْحَهُ دَمًا، فَسَجَلَ هَذَا
الْفَعَالُ الْاسْتِبْسَالِيَّ الْفَذَّ:

نَادَى الطَّعَّانَيْنِ: «يَا رَبِيعَةَ» بَعْدَمَا لَمْ يَبْقَ غَيْرُ حُشَّاشَةٍ وَفَوَاقٍ
فَأَجَابَهَا، وَالرُّمُحُ فِي حِيزِوَمِهِ، أَنْفَاءً، بِطَعْنٍ كَالشَّعِيبِ دُفَاقٍ^(٢)

وَمَنْ أَثْنَى عَلَيْهِ أَيْضًا لِفَعْلِهِ فَعَلًّا إِنْجَادِيًّا أَشْهَرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ الْحَارِثُ بْنُ ظَالِمِ الْمُرِّيِّ.
ذَلِكَ أَنَّهُ لَبَّى صَبِيحَةَ امْرَأَةٍ سَلَبَهَا عَامِلٌ مِنْ عِمَالِ النُّعْمَانِ بْنِ الْمُنْذَرِ إِبِلَهَا، فَعَلَقَتْ دُلُوحَهَا
بِدُلُو الْحَارِثِ، وَمَعَهَا ابْنٌ لَهَا صَغِيرٌ، وَكَانَ اسْمُهَا «دِهَيْثُ». وَقَدْ ضَرَبَ الْفَرَزْدَقُ
بِالْحَارِثِ الْمِثْلَ فِي الْوَفَاءِ وَأَشَادَ بِذِكْرِهِ:

كَمَا كَانَ أَوْفَى إِذْ يَنَادِي ابْنَ دِهَيْثٍ وَصِرْمَتُهُ كَالْمَغْنَمِ الْمُتَنَهَّبِ
فَقَامَ أَبُولَيْلَى إِلَيْهِ ابْنُ ظَالِمٍ وَكَانَ مَتَى مَا يَسْلُلُ السَّيْفُ يَضْرِبُ
وَمَا كَانَ جَارًا غَيْرَ دُلُوٍ تَعَلَّقَتْ بِحَبْلَيْنِ فِي مُسْتَحْصِدِ الْقِدِّ مُكَرَّبٍ^(٣)

وَاسْتَخْدَمَ الطَّرِمَّاحُ صُورَةَ النِّسْوَةِ اللَّوَاتِي يُذْهِلُهُنَّ فَرَعُهُنَّ فَلَا يَحْفَلْنَ بِإِرْخَاءِ ذِيُولِهِنَّ

(١) شرح ديوانه، ص ٢٠٦ والتي تليها. لَا يَجِئْنَ عَلَى الخِدَامِ: لَا يُرْسِلْنَ نِيَابَهُنَّ فَيُعْطَيْنَ خِدَامَهُنَّ وَهِيَ خَلَاخِيلُهُنَّ؛

وَأَاءَلْ: أَنْجَى؛ وَأَلَّ: نَجَا، الْمُحِلُّ: الرَّجُلُ؛ الْحَرَامُ: الْحَرَمُ؛ يَنْحِطُ: يَزْجُرُ؛ غَيْرَ تَامٍ: غَيْرَ مُرْتَفِعٍ، غَيْرَ قَائِمٍ.

(٢) الْأَغَانِي، ٦٣/١٦ والتي تليها. الْحُشَّاشَةُ: بَقِيَّةُ الرُّوحِ فِي الْجَسَدِ؛ الْفَوَاقُ: بَقِيَّةُ النَّفْسِ فِي الْجَسَدِ؛ دُفَاقُ: مُتَدَفِّقُ.

وَالْخَبَرُ ص ص ٥٦ - ٥٨ فِي الْمَصْدَرِ عَيْنِهِ.

(٣) يَنْظُرُ الْمَصْدَرُ نَفْسَهُ، ١٠٥/١١. صِرْمَتُهُ: الصِّرْمَةُ الْقِطْعَةُ مِنَ الْإِبِلِ. مُسْتَحْصِدُ: مُحْكَمُ الْفَتْلِ. مُكَرَّبُ:

مَشْدُودُ الْكَرْبِ وَهُوَ حَبْلٌ يَشَدُّ عَلَى عِرَاقِي الدُّلُوثِ يُثْنَى وَيُثَلَّثُ.

على سوقهن فتبدو خلاخيلهن، تلك الصورة التي أشرنا فيما سبق إلى استخدام ليبد لها، وزاد أنهن يشددن أحزمتهن على عَجَلٍ تَأْهُباً للفرار لما اعتراهن من خيفة. استخدم هذه الصورة ليعظم حاجة أولئك النسوة في مثل هذا الموقف للإنجاد، وليُثْنِي على مرثيه يزيد بن المهلب بشدة الغيرة عليهن في تلك الحال، والإسراع لإعادة السكينة إلى نفوسهن:

فتى كان عند الموت أصبر منهم حفاظاً، وأعطى للجِيَادِ السَّوَابِقِ
وأغِيرَ عند المحصنات إذا بدت بُرَاهُنَ، واستَعْجَلْنَ شَدَّ النُّطَاقِ^(١)

كما استخدمها الفرزدق في رثائه للجراح بن عبدالله الحكمي أحد قادة الفتح الإسلامي الذي قتله الخَزَرُّ، كما أشرنا، فنعتته بسرعة إنجاد النساء حين يشمرن عن سوقهن، وقلوبهن توشك أن تغادر صدورهن فزَعاً. ويتساءل عمن سيخلفه في هذا العمل بعد أن شرب كأس المنون؟ وَمَنْ هُنَّ، بعد الله تعالى، لِيَدْعُوْنَ؟ لقد حُقَّ لهن أن يَذْرِفن الدَّمَعَ الثَّرَّ على حامى حرمتهن، الذَّابِّ عن ذمارهن:

وَمَنْ بَعْدَهُ تَدْعُو النِّسَاءُ إِذَا سَعَتْ وَقَدْ رَفَعَتْ عَنْهَا ذُيُولَ الْمَخَادِمِ
لِتَبْكِ النِّسَاءُ السَّاعِيَاتُ إِذَا دَعَتْ لَهَا حَامِيًا، يَوْمًا، ذِمَارَ الْمَحَارِمِ^(٢)

إن مما لا مرأى فيه أن نداء النساء المَضيَّيات أسرعُ النداءات وصولاً إلى قلب العربي والمسلم ونفاذاً فيه. وَمَنْ مَنَّا لا تتبادر إلى ذهنه، إذا ذُكِرَ الاستصراخ والإصراخ، صيحة المرأة المسلمة التي أطلقتها في القرن الثالث الهجري (سنة ٢٢٣هـ) مستنجدة بالخليفة المعتصم في بغداد، وهي في زِبْطَرَةِ بِلَادِ الرُّومِ لينجدها وينجد المسلمين؟ تلك الصيحة التي ما إن بلغت حتى هبَّ لإجابتها (هارقاً لها كأس الكرى ورضاب الخُرْدِ العُربِ)، وكانت سبباً في فتح عمورية.

(١) ديوانه، تحقيق عزة حسن، دمشق: وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م، ص ٣٣٨.

بُرَاهُنُ: خلاخيلهن؛ النُّطَاقُ: ج. النُّطَاق وهو الحزام.

(٢) ديوانه، ٢٣٩/٢. المخادم: الخلاخيل.

وما كان ذلك الصوت الزَّبْطَرِيُّ بأوّل صوتٍ نسائيٍّ مسلمٍ مستنجدٍ استجيب له استجابة عاجلة حاسمة أدت إلى فتح بلاد أوغزوها. فقبل انطلاقه بأكثر من مائة عام علم الحجاج بن يوسف أن امرأة مسلمة (سبيت في الهند فنادت: يا حجاجاه! . . . فجعل يقول: «لييك! لبيك!») ^(١)، ثم أمر بحملة أنفق عليها مالا كثيرا، وفك المرأة من أيدي سُبَاتِها، وفتح الهند بأسرها. ^(٢)

ولما اعترض قراصنة من أهل الدَّيْل في الهند سبيل سفينة كانت تحمل نساء مسلمات. وأخذوها بها فيها، وكانت أولئك النساء قد أهداهن إلى الحجاج ملك جزيرة تدعى «جزيرة الياقوت»، ووجدن أنفسهن، وقد أُخِذْنَ، صرخت إحداهن: يا حجاج! يا حجاج! فبلغت الحجاج صيحتها فقال: «لييك!» وبعث إلى داهر ملك الدَّيْل يطلب منه إخلاء سبيل النساء، فلما زعم أن أَخِذِيهِنَّ لصوص لا يَقْدِرُ عليهم، أمر عُبيد الله بن نهران بغزو الدَّيْل ^(٣).

لكن، إذا كان كثير من النساء المسلمات المكرويات في الحقب الإسلامية المبكرة استنجدن فأنجذن، فَجَنَيْنَ ثَمَارَ صَيَحَاتِهِنَّ، فإن أخواتِهِنَّ لم يكن لهنَّ إذ استنجدن من مُنْجِدٍ، فَظَلَلْنَ يقاسين في أسرهن المَبْرُج المير من آلام النفس والجسد، وما أنكى معاناة العربي والمسلم الغيور، وهو يرى المرأة العربية أو المسلمة تقع سبية في أيدي العدو تستغيث فلا تغاث! .

وقد وصف الشرعبي الطائي ما أوجسه من وجع مضمٍ وهو يشهد مثل هذا المشهد سنة ١١٢ هـ غِبَّ إحدى المعارك التي جرت بين المسلمين والترك قرب «سمرقند»، ودُعيت بـ «يوم الشعب». وكان يقود المسلمين الجنيد بن عبد الرحمن، ويقود الترك خاقان. فعبر عن معاناته، وهو يرى الخرائد من النساء المسلمات يذهب بهن. رجال

(١) ينظر مثلا معجم البلدان، ٣٥٠/٥.

(٢) ينظر المصدر نفسه، الموضع نفسه.

(٣) ينظر مثلا فتوح البلدان، لأحمد بن يحيى البلاذري، تحقيق رضوان محمد رضوان، القاهرة: مطبعة السعادة،

[١٣٧٩هـ/١٩٥٩م، ص ٤٢٣.

سُغْدِيُونَ^(١) جهمو الأوجه، قصيرو الأذان، غير أهل لهن. وكانت كل منهن تُتْبِعُ النداء النداء للمسلمين مناشدة إياهم أن يغاروا عليها، ويرجعوا ويستنقذوها من أسرها السُغْدِيَّ، محرَّضَةً إياهم على استزهاد المنية من أجل الذَّبِّ عن العرض المسلم. لكنَّ صيحاتهنَّ ذهبت أدراج الرياح، فظللن لدى الكفار الأتراك يقودونهنَّ بخُمُرهنَّ:

أَلَا رَبُّ خَوْدٍ خَذَلَةٍ قَدْ رَأَيْتَهَا يسوق بها جهم من السُغْدِ أَصْمَعُ
أُحَامِي عَلَيْهَا حِينَ وَلَّى حَلِيلُهَا تُنادي إليها المسلمين فَتُسْمِعُ
تُنَادِي بِأَعْلَى صَوْتِهَا صَفَّ قَوْمِهَا: أَلَا رَجُلٌ مِنْكُمْ يَغَارُ فَيَرْجِعُ؟!
أَلَا رَجُلٌ مِنْكُمْ كَرِيمٌ يَرُدُّنِي يرى الموتَ في بعض المواطن يَنْفَعُ؟!
فَمَا جَاوَبُوهَا، غَيْرَ أَنْ نَصِيفُهَا بِكَفِّ الْفَتَى بَيْنَ لِبْرَازِيْقٍ أَشْنَعُ^(٢)
وهذا الوصف المأساويُّ النابع من قلب متفطِّرٍ يُبَيِّنُ أَجْلَى إِبَانَةٍ انطفاء جذوة روح الغيرة والنجدة في قلوب المسلمين في تلك الحقبة، بعد أن كانت متأججة في قلوبهم، عامرة بها صدورهم.

ثالثاً: الذَّمُّ بالإعراض عن الدَّاعي وعدم الإنجاد:

أما من لا يلبي دعاء المستنجد به فسيستجرع المرء من ألسنة الشعراء التي لا تَكِلُ ولا تَمَلُّ من ذمَّةٍ لذلك، وتعييره به، وتسجيل تقصيره ليلبغ خبره الداني والقاصي. فعلى سبيل المثال، لما لاذ أسيد بن جَذِيمة العَبْسِيُّ بالفرار تاركاً خلفه في معمرة القتال أخاه زهير بن جَذِيمة حيث جرح جرحاً ممضاً سرى إلى نفسه، سجل ابنُ أخيه ورقاء ابن

(١) «السُغْدِيُونَ» أو «السُغْد» جنس من الترك.

(٢) تاريخ الطبري المسمى «تاريخ الرسل والملوك» لمحمد بن جرير الطبري، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٥م، ٨٥/٧، وخبر يوم الشعب ص ٧١ وما بعدها؛ وشعر طيء وأخبارها، جمع وتحقيق وفاء فهمي السندوني، الرياض: دار العلوم، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، ٦٠٨/٢. البرازيق: الفرسان. وجماعات الخيل. ينظر مثلاً اللسان (ب رزق).

زهير نجاهه بنفسه وتركه أخاه غير آبه لدعائه، بينما ظل إخوته الآخرون كافة يدفعون عنه لمروءتهم ونجدتهم:

بنو جَذِيْمَةٍ حَامَوْا حَوْلَ سَيِّدِهِمْ إِلَّا أَسِيداً نَجَا إِذْ ثَوَّبَ الدَّاعِي^(١)

وعير كعب بن مالك رضي الله عنه بني عامر، لعدم إغاثتهم القراء الذين بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم، وكانوا في جوار سيدهم أبي براء عامر بن مالك الكلابي الملقب بملاعب الأسيّة، وهو عمّ عامر بن الطفيل الذي فتك بهم ومعه جماعة من بني سليم. ونعتهم كعب بالجين، عن لقائهم، فتركوا القراء يُنَحْرُونَ نحر الشاء، وهم يسمعون صيحاتهم واستغاثاتهم:

بني أُمِّ الْبَنَيْنِ أَمَا سَمِعْتُمْ دُعَاءَ الْمُسْتَغِيثِ مَعَ الْمَسَاءِ؟
وَتَنْوِيَةَ الصَّرِيخِ؟ بَلَى. وَلَكِنْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ صِدْقُ اللَّقَاءِ^(٢)

ولما تخلى بنو يربوع يوم جدود عن نصر بني عمهم التميميين بني سعد بن زيد مناة، لما أغار عليهم الحارث بن شريك الشيباني الملقب بالحوفزان وأبجر بن جابر العجلي بجيش من بكر بن وائل، وذلك نظير خمسمائة جُلّة من تمرٍ وفضل ما مع المغيرين من لباس، وبعد أن عاهدوهم على ألا يروّعوا حنظلياً ولا يقاتلوه، لما فعلوا ذلك كان موقفهم مما عيرهم به الفرزدق فقال: إن بني سعد لن ينسوا خذلانكم إياهم، وتوليكم عنهم مُحَلِّين بين عدوّهم وبينهم فكان سيوفكم، لعدم غنائها، يومذاك، ذَانِنُ، وهى نباتات غَضَّة هَشَّة تنشق عنها الأرض كأنها سواعد الرجال لا ورق عليها. أما بنو سعد فدفعوا عن نسوانهم بسيوفهم، ولم تُجِدْهُمْ دَعْوَتُهُمْ إِيَّاكُمْ شَيْئاً. وكانت نسائهم يَصْحَنَ وَيَسْتَصْرِخْنَ وقد خشين أن يُضْحِجْنَ سِبَاءً للعدو، وقد كشفن، من شدة الهول، عن سيقانهن. والفرزدق يرمي من استخدام هذه الصورة، التى عرضنا سابقاً

(١) الأغاني، ٩٠/١١.

(٢) ديوانه، تحقيق سامي العاني، بغداد: مكتبة المعارف، [١٣٨٦هـ-١٩٦٦م]، ص ١٧٠.

شيوخها لدى شعراء آخرين سابقين له، إلى تكبير جُرم بني يربوع بتهويل صورة النساء في ساحة القتال وشدة فزعهن واضطرابهن وذهولهن :

أَتَنَسَى بنو سَعْدٍ جَدُودَ التي بها خذلتهم بني سعد على شَرِّ مَحْذَلٍ ؟
عَشِيَّةً وَلَيْتُمْ كَأَنَّ سِيُوفَكُمْ ذَانِينَ فِي أَعْنَاقِكُمْ لَمْ تُسَلِّلْ
عَصَوْا بالسيف المَشْرِفِيَةِ فِيهِمْ غِيَارِي، وَأَلْقَوْا كُلَّ جَفْنٍ وَمَحْمَلٍ ^(١)
هَمَّهْنِ أَسِيفٌ حَدَادٌ طُبَاتُهَا وَمِنْ آلِ سَعْدٍ دَعْوَةٌ لَمْ تُهَلِّلْ ^(٢)
دَعْوُونَ وَمَا يَذَرِينَ مِنْهُمْ لِأَيِّهِمْ يَكُنْ، وَمَا يُخَفِّينِ سَاقًا لِمُجْتَلٍ ^(٣)

وعير يربوعاً، في قصيدة أخرى، بتركهم عَبَادَ بْنَ عِلْقَمَةَ (الذي كان يُدْعَى ابْنَ أَخْضَرَ) يُقْتَلُ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ، يستصرخ ولا مُصْرِحَ له. وكان هذا الرجل قد قتل رجلاً من بني كليب يدعى مُرْدَاسًا. وجاء يوما ووراء ابْنُ له صغير يريد منزله، فلما كان في بني كليب خرج عليه جماعة منهم، وأخذوا بلجام دابته، فلما علم أنه غير ناجٍ رمى بابنه على أدنى سطح يليه، فسعى الصَّبِيُّ عَلَى السَّطْحِ وَسَلِمَ. ونادى عَبَادُ بْنُ كَلِيبٍ: أَلَا مَعِينًا عَلَى هَؤُلَاءِ الْكَلَابِ؟ فلم يَهَبْ لِعَوْنِهِ وَعَوْنِهِ أَحَدٌ، فقتلوه.

وقد أمطرهم الفرزدق بوابل من الهجاء اللائم لوماً قوياً على تقاعسهم عن نصر المضاف الذي كان وسط بيوتهم يواجه الموت الزُّوَامَ :

كَفَعَلَ كَلِيبٍ يَوْمَ يَدْعُو ابْنُ أَخْضَرَ وَقَدْ نَشِبَتْ فِيهِ الرِّمَاحُ الشَّوَاجِرُ
فَلَمْ يَأْتِهِ مِنْهَا، وَبَيْنَ بَيْوتِهَا أُصِيبَ ضِيَاعاً، يَوْمَ ذَلِكَ، نَاجِرُ
وَهُمْ حَضَرُوهُ غَائِبِينَ بِنَصْرِهِمْ، وَنَصَرَ اللَّئِمَ غَائِبٌ وَهُوَ حَاضِرُ
وَهُمْ أَسْلَمُوهُ فَاكْتَسَوْا ثَوْبَ لَامَةٍ سَبَقَى لَهُمْ مَا ذَامَ لِلزَّيْتِ عَاصِرُ ^(٤)

(١) عَصَوْا بالسيف: اتخذوها كالعصي. جَفْنٌ: غمد سيف.

(٢) لَمْ تُهَلِّلْ: لَمْ تُكَلِّبْ، فهي دعوة صادقة.

(٣) ينظر ديوان، ١٧٥/٢ والتي تليها، والنقائض، ٧١٠/٢ والتي تليها. مُجْتَلٍ: المجتلي: من (اجتلاه) أى نظر إليه.

(٤) ينظر ديوانه، ٣١٦/١ والتي تليها؛ لَمْ يَأْتِهِ نَاجِرٌ: لَمْ يَأْتِهِ أَحَدٌ؛ لَامَةٌ: أَمْرٌ يَلَامُ عَلَيْهِ فاعله.

كما عَيَّرَ الفرزدق قيس عيلان لأنهم تراخَوْا عن نصر قتيبة بن مسلم لما دعاهم
ليمنعوه من تميم، فنعتهُم بأنهم اضمحلُّوا اضمحلَّ السَّرَابُ فوق أنوف الجبال،
فلم يكن لدعوته من بينهم مجيب.^(١)

وكان جرير أيضاً كثير الهجاء بقلة الاحتفال بالمستصرخ المكروب، وعدم إعارة
صيحاته أذناً صاغية، وقد خصَّ الفرزدق، ألدَّ خصومه وبني مجاشع قومه، بأوفر
نصيب من هذا الهجاء. فهم، لجنهم وخَوَرِهِمْ تركوا لَقِيْطَ بن زُرَّارَةَ صريعاً، يَوْمَ
جَبَلَةَ، ولم يَبْدُ منهم، لِعَوْنِهِ، حِرَاكٌ:

وْخَوْرُ مُجَاشِعٍ تَرَكَوا لَقِيْطاً وقالوا: حِنُوْ عَيْنِكَ وَالْغُرَابَا^(٢)

وهم سمعوا (بني مجد) يصيحون ويندبون: «يَالْ عَامِرُ! يَالْ عَامِرُ!» فَصَمُّوا وَفَرُّوا
فِرَارَ النِّعَامِ النَّافِرِ فَرَّ مِنْ قَسْوَةِ:

سَمِعْتُمْ بَنِي مَجْدٍ دَعَوْا: يَالْ عَامِرُ! فَكُنْتُمْ نَعَاماً بِالْحَزِيزِ مُنْفَرَا^(٣)

وأذهى من هذا وأمر، أن بني مجاشع لما دعاهم الزبير بن العوام رضي الله عنه
ليستنقذوه من عمرو بن جرموز المجاشعي الذي غدر به بعد أن استأمنه، وهو في
طريقه من البصرة إلى مكة غِبَّ يوم الجمل، لما تخلَّى الناس عنه وعن طلحة بن عبيد الله
رضي الله عنه^(٤)، لم يغيثوه، فقتله ابن جرموز:

(١) في قوله:

غداة اضمحلت قيس عيلان إذ دعا كما يضمحلُّ الال فوق المخارم
لتمنعه قيس ولا قيس عنده إذا ما دعا، أو يرتقي في السلام

نفسه، ٣١٢/٢. المخارم: جد المخرم، وهو «منقطع أنف الجمل»، عن الصحاح، ص ١٩١٠م.

(٢) ديوانه، بشرح محمد بن حبيب، تحقيق نعيان أمين طه، القاهرة: دار المعارف، [١٣٨٩هـ] / ١٩٦٩م،
ص ٨١٧. خور مجاشع: الحور: جد الخائر والخوار: الضعيف؛ حِنُوْ عَيْنِكَ والغراب: الجنو الجانِب، و(عينك
والغراب) مثل لمن ينتظر الموت (في ساحة القتال بخاصة) فهو يديم النظر إلى الغراب لحوفه أن يقع عليه.

(٣) نفسه، ص ٤٨٤ ط. الحزيز: الموضع الكثير الحجارة أو الغليظ، ينظر مثلاً اللسان (ح زز).

(٤) ينظر مثلاً تاريخ الطبري، ٥٣٤/٤ وما بعدها.

* ودعا الزبير مجاشعاً فترمزت للغدر الأُم أنفٍ وسِبَال^(١)
 * دَعَاكُمْ حَوَارِي الرُّسُولِ فَكُنْتُمْ عَضَارِيطَ يَاحُشَبِ الْخِلَافِ الْمُصْرَعَا^(٢)

وزعم جرير أن الزبير لو كان دعا بني يربوعِ قَوْمُهُ عِوَضَ دَعْوَتِهِ مجاشعاً لما لقي ما لقي، ولما استطاع قتله الوصول إليه:

فلو أن يربوعاً دعا، إذ دعاهم، لَابَ جَمِيعاً رَحْلُهُ الْمُتَمَزَّعُ^(٣)

كما هجا جريرُ بني أسيد بن عمرو بن تميم بعدم إجابة داعيهم الذي يرفع عقيرته صائحاً في أوائل النهار، بينما يمضون منطلقين لإجابة الداعي إلى الطعام، لِشِدَّةِ نَهْمِهِمْ:

إِذَا كُنْتُ بِالْوَعَسَاءِ مِنْ كِفَّةِ الْغَضَى لَقَيْتَ أُسَيْدِيَّهَا غَيْرَ أَرْوَعَا
 سريعاً إذا قيل: الغداء، أزدِلافُهُ بطيئاً إذا دَاعِيَ الصَّبَاحِ تَشَنُّعَا^(٤)

وأما عدمُ إجابة النساءِ المستصرخاتِ وتفريجِ ما أَلَمَ بهنَّ من كَرْبٍ فَأَكْبَرُ بِهِ مِنْ ذَامٍ وَأَفْدَحُ! إذ لو عُذِرَ مَنْ لَا يَحْفَلُ بدعاء الرجالِ المستصرخينِ لسببٍ أو لآخر، فمن يعذر من لا يهَبُ لإنجادِ الصارخاتِ المستغيثاتِ؟. ولهذا فإن الشَّعْرَ العربيَّ الهاجِيَّ بهذا التقصير في القيام بالواجب لغير قليل. فمثلاً ذمُّ الفرزدقِ يربوعاً قومَ جرير، وذلك دَيْدَنُهُ، وعيرهم تَغْيِيراً جارحاً شامتاً بِالْحَقِّ الْهُذِيلِ بْنِ هُبَيْرَةَ التَّغْلِبِيِّ الهزيمةَ بهم يوم إِرَاب. وكان الهذيل قد هزمهم حقاً، وسبى عدداً من نسايتهم منهم امرأة كان اسمها زينب بنت حميرٍ الرَّيَاحِيَّةِ (وهي يومئذ عقيلة نساء بني يربوع).^(٥)

(١) ديوان جرير، ص ٩٦٠. ترمزت: تحركت؛ سِبَال: شوارب.

(٢) نفسه، ص ٩٠٦. عضاريط: ج. عضروط وهو التابع من خادم ونحوه؛ الخِلاف: شجر، وهو هش ضعيف.

(٣) نفسه، ص ٤٩٢. فلُو أن يربوعاً دعا إذا دعاهم: أي لو أن الزبير دعا يربوعاً إذ دعا مجاشعاً (أي لو دعا يربوعاً عوض دَعَاة مجاشعاً).

(٤) نفسه، ص ٣٠١. تَشَنُّعٌ: رَفَعَ صَوْتَهُ.

(٥) أيام العرب قبل الإسلام، لأبي عبيدة معمر بن المثنى، تحقيق عادل جاسم البياتي، بيروت: عالم الكتب ومكتبة النهضة العربية ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، ص ٤٧٨. العقيلة: الكريمة على أهلها، المفضلة فيهم.

وقد أسرف الهذيل في تقتيل اليربوعيين، فَبَثَّ الرُّعْبَ في قلوبهم، فَسَمَوْهُ «مُجْدَعًا»، وظلّوا حيناً يُفَزِّعُونَ به صبيانَهُمْ^(١) لكنَّ أحد سادة بني رياح اليربوعيين وهو جَزْءُ بَنِ سَعْدِ الرِّيَّاحِي كان قد أغار أيضا على بكر بن وائل، وهم أبناء عمِّ بني تغلب قوم الهذيل، وأصاب من أموالهم، وسبى من نسوانهم، (فالتقيا على إرباب فاصطلحا على أن خلى جَزْءُ ما في يديه من سَبْيِ بكر بن وائل وأموالِهِمْ، وخلى الهذيل ما في يديه من سبي بني يربوع وأموالِهِمْ... وفي هذا اليوم يقول جرير:

ونحن تداركنّا ابنَ حصنٍ ورَهْطَهُ ونحن منعنا السَّبْيَ يَوْمَ الأَرَقِمِ)^(٢)

لكن الفرزدق لم يقبل من هذا إلا ما رغب فيه وصادف هويَّ في نفسه، وذلك - كما تبيّن - ليس الحقيقة الكاملة. إنه لم يقبل من الخبر كله إلا أن الهذيل سبى نساء يربوعاتٍ، ثم مضى مدّعياً أن قومهن ولّوا الأدبار، وتركوهن غنيمَةً للهذيل باردةً، ولم يجتهدوا في نصرهن ومنعهن من السبي، وصوّرهن تصويرا شديدا للإيلام والإخزاء، وهنَّ يُعَوِّلْنَ وَيُوَلِّوْنَ بأعلى أصواتهن، وَيَنْدُبُنَّهُمْ هاتفاتٍ باسم عشيرتهن: يالَ يَرْبُوع! يالَ يَرْبُوع! لكنَّ صيحاتهن لم يجبها مجيب، فحالت بينهن وبين أهليهن القنّاء الشواجر، والسيوف القواضب، وسار الهذيل ورجاله خلال رمال الدهناء، وقد أردفوهن على صهوات جيادهن، وقعقةٌ حَلِي سيقانِهِنَّ المَدْلَاةِ خلفَ سيقانِ سُبَاتِهِنَّ تُسَمِّعُ من بعيد، وهنَّ يَتَلَقَّتْنَ لقاء قومهن عسى أن يبصرن فرساناً منهم أوركباناً تكاد خيلهم أومطايهم تطير بهم لاستردادهنَّ. لكن هيهات! فقد مضى بهنَّ الهذيل ومن معه واسترقوهنَّ:

ولم تَمْنَعُوا يومَ الهُدَيْلِ بناتِكُمْ	بني الكلب، والحامي الحقيقة مانعُ
غداة أتت خيلُ الهُدَيْلِ عليكم	وسدّتْ عليكم من إرباب المطالعِ
بَكَيْنَ إليكم، والرَّماحُ كأنها	صُدُورُ العوالي والذُّكُورُ القواطعُ

(١) ينظر المصدر نفسه، الموضع نفسه.

(٢) النفااض، ص ٨٨٣.

فَأَيُّ لَحَاقٍ تَنْظُرُونَ، وقد أتى على أُمْلِ الدَّهْنِ، النِّسَاءُ الرِّوَاضُ
وهنَّ رَدَافِي يَلْتَفِتْنَ إِلَيْكُمْ لَأَسْوَقُهَا خَلْفَ الرِّجَالِ قَعَايَعُ

.....

تَرَى لِلْكَلْبِيِّاتِ وَسْطَ بُيُوتِهِمْ وَجُوهَ إِمَاءٍ لَمْ تَصْنَهَا الْبَرَاقِعُ^(١)

وإذا كان التقصير في حماية النساء، بصفة عامة، اقترافاً مذموماً غير مغتفر فما بالك بتقصير الرجل في الدَّفْعِ عن أمه؟

ولهذا لما أراد يزيد بن مفرغ الشاعر الأموي أن يذمَّ عبيد الله بن زياد ذمًّا مؤلماً زعم أنه تخلى عن أمه وسط معركة مع الروم. ورسم لها صورة مثيرة للعطف جداً، حاملةً على النخوة، وهي تصيح صيحات استنجد مدوِّيةً وقد أبرزت ثديها الذي امتصَّ عبيد الله لَبَنَهُ طمعاً في استنهاض النخوة في دمه، وقد هيمن عليها الرجال، وهي تذودهم، وتزجرهم عن نزع قناعها، وغمرها الخوف كما يغمر نعاماً فارّةً في قاعٍ مُسْتَوٍ، لكن لا حالتها الهائلة، ولا استنجاتها الحرى أجذت، فقد تركها ابنها في يد عدوها ونجا بنفسه:

أَسْلَمْتَ أُمِّكَ، وَالرِّمَاحُ شَوَارِعُ يَالَيْتَنِي لَكَ لَيْلَةٌ الْإِفْزَاعُ
إِذْ تَسْتَغِيثُ وَمَا لِنَفْسِكَ مَانِعُ عَبْدٌ تَرَدَّدُهُ بَدَارِ ضِيَاعُ
هَلَّا عَجُوزاً إِذْ تُمَدُّ بِثَدْيِهَا وَتَصِيحُ: أَلَّا تَنْزِعَنَّ قِنَاعِي!
أُنْقَذْتَ مِنْ أَيْدِي الْعُلُوجِ كَأَنَّهَا رَبْدَاءُ مُجْفَلَةٌ بِيْطِنِ الْقَعَايَعِ^(٢)

وهذا العمل، لا شك، أشنع من أن يُصدَّق، وأغلب الظن أن هذه التهمة من نسج خيال يزيد.

(١) ديوانه، ٤٢٠/١ والتي بعدها، والنقائض، ص ٧٠٢ - ٧٠٥. وقد أسقطنا عدة أبيات وردت في المصدر الأخير لما فيها من إفحاش. أُمْلِ الدهن: جد أُميل، وهو الرمل المستطيل العريض، أو المستطيل بلا عرض. ينظر النقائض، ص ٧٠٤.

(٢) ديوانه، تحقيق عبد القدوس أبوصالح، بيروت: دار الرسالة، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م، ص ١٦٠ وما بعدها.

وقبل ختام الحديث، بعد أن تجلّى لنا موقف العرب الأقدمين من «إجابة الداعي والإنجاد» مُستَدلاً عليه بقدر من شعرهم كافٍ لهذا الغرض^(١)، لعلّ من الملائم، وإن كان معلوماً، أن نشير إلى أن الدّين الإسلاميّ الحنيف الذي جاء (لِيُتِمَّمَ مكارم الأخلاق) قد تَمَّ حقاً خُلُقِي «إجابة الدّاعي» و«إغاثة الصّريخ» بأن أعاد بناءهما على أساس جديد قوامه الحق والإنصاف والإحسان، بعد أن اجْتَثَّ الأساس القديم القائم على العصبية العرقية والحمية الجاهلية. لقد كان الأساس الجديد هو الأخوة الإيمانية الخلو من شوائب التعصّب الأعمى المقيت، تلك الشوائب التي شانت وجهي تينك القيمتين الخلقيتين في الجاهلية، ولدى الزّالّين عن النهج المحمّدي بعد مجيء الإسلام، بل حرّفتها عن مغزاهما الإنساني الشريف. فوجّه أساس الأخوة الإيمانية محيِب الداعي ومغيث المستنجد إلى إجابة الدّاعي المظلوم المستضعف وعونه على ظالمه. أما الدّاعي الظالم فإنما تكون إجابته بالانبراء لكَفِّه عن ظلمه. والمسلم مرغّب ترغيباً قوياً في تفريج كَرْب المكروب، ومدعوً إلى إعانة أخيه. وحسبنا هنا، لضيق المقام، قول النّبي صَلَّى الله عليه وسلّم: «المُسْلِمُ أخو المُسْلِمِ لا يظلمه، ولا يسلمه،

(١) وبالإضافة إليه، نسرّد فيما يلي مواضع أمثلة شعرية أخرى في مصادرها لمن أراد الاطلاع على مزيد من الشعر القديم في الموضوع: ديوان طرفة بن العبد، ص ١٤٣؛ ديوان حسان بن ثابت الأنصاري تحقيق وليد عرفات، بيروت: دار صادر، [١٣٩١هـ] / ١٩٧١م، ٢٠٦/١ و ٣٠٣؛ ديوان عنصرة، ص ٣٣٧ ومعجم الشعراء، ص ١١٥ (بيت لشاعر جاهلي اسمه عاصم بن جويرية)؛ شرح ديوان الحماسة، ١١٨٤ (بيت لمضرّس بن ربعي الفقعسي) و ١١٠٤ (لرجل طائي مجهول)؛ ديوان حميد بن ثور الهلالي، ص ١١؛ ديوان جرير، ٣٢٧/١ (بيت لشميت بن زنباع الرّياحيّ، وهو شاعر جاهليّ وليس لصاحب الديوان)؛ كتاب المعاني الكبير لابن قتيبة الدّينوري، تحقيق سالم كرنكو، حيدرآباد: دائرة المعارف العثمانية، ١٣٦٨هـ / (١٩٤٩م) ص ١١١٦، والمفضليات، ص ٣٢ (بيت لِلْكَلْجَةِ العُروِيّ)؛ الحماسة الشجرية، لهبة الله بن علي العلوي، تحقيق عبدالمعين الملوحي وأسماء الحمصي، دمشق: مجمع اللغة العربية، [١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م]، ٣١٤/١ (بيتان للبيلى الأخيلية)؛ ديوان الخنساء، ص ٨؛ ديوان الفرزدق، ١٥/١ و ١٣٠ و ٢٧٦-١٨/٢ و ٢٩٩؛ «شعراء إسلاميون» لنوري حمودي القيسي، ص ٤٢ (بيت للقعقاع بن عمرو).

ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرّج عن مسلم كربة فرّج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة»^(١).

ومن عجب أن هذه الرؤية الإسلامية المعروفة، لا تتجلى تجلياً ناصعاً في فكر الشعراء في العصر الأموي، وما ذلك إلا لعودة العصبية القبلية، التي كانت في الجاهلية غالباً وراء التزوع لإجابة الداعي، وأحياناً حتى لإنجاد المستغيث، إلى احتلال موقع قريب من موقعها قبل مجيء الإسلام.^(٢)

وصلّى الله على نبيّنا محمد وعلى آله وصحابه كافة . .

(١) رواه البخاري في صحيحه، تحقيق مصطفى أديب البغا، (دمشق: الياصرة للطباعة والنشر، ١٤٠٧هـ /

١٩٨٧م)، ٨٦٢ والتى تليها. (الحديث: ٢٣١٠).

(٢) راجع «العصبية القبلية في العصر الأموي»، ص ٢٥٣ وما بعدها.

المصادر والمراجع

- البخاري، (محمد بن إسماعيل)، صحيحه، تحقيق مصطفى أديب البُغا، (دمشق: اليمامة للطباعة والنشر، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م).
- الأصبهاني، (علي بن الحسين)، الأغاني، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، [١٣٨٩هـ] / ١٩٧٠م.
- الأصمعي، (عبد الملك بن قُريب)، الأصمعيات، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، القاهرة: دار المعارف، ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م.
- الأعشى، (ميمون بن قيس)، ديوانه، تحقيق م. محمد حسين، القاهرة: مكتبة الآداب، [١٣٧٠هـ] / ١٩٥٠م.
- أعشى همدان، (عبدالرحمن بن الحارث الهمداني)، ديوانه، تحقيق حسن عيسى أبي ياسين، الرياض: دار العلوم، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
- البغدادى، (عبد القادر بن عمر)، خزانة الأدب، تحقيق عبدالسلام هارون، القاهرة: مكتبة الخانجي، والرياض: دار الرفاعي، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٢م.
- البلادري، (أحمد بن يحيى)، فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمد رشوان، القاهرة: مطبعة السعادة، [١٣٧٩هـ] / ١٩٥٩م.
- أبو تمام، (حبيب بن أوس الطائي)، كتاب الوحشيات، تحقيق عبدالعزيز الميمني، القاهرة: دار المعارف [١٣٩٠هـ] / ١٩٧٠م.
- جـرير، ديوانه، بشرح محمد بن حبيب، تحقيق نعمان أمين طه، القاهرة: دار المعارف، القسم الأول: [١٣٨٩هـ] / ١٩٦٩م. القسم الثاني: [١٣٩٠هـ] / ١٩٧٠م.
- ابن جندل، (سلامة)، ديوانه، تحقيق فخر الدين قباوة، حلب: المكتبة العربية، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م.

الجوهري، (إسماعيل بن حماد)، الصحاح، تحقيق أحمد عبدالغفور عطار،
القاهرة: ؟، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

حاتم بن عبدالله الطائي، ديوانه شعره وأخباره، صنعة يحيى بن مدرك الطائي،
تحقيق عادل سليمان جمال، القاهرة: ؟، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م.

حميد بن ثور الهلالي، ديوانه، صنعة عبدالعزيز الميمني، (نسخة مصورة عن
طبعة دار الكتب المصرية لسنة ١٣٧١هـ / ١٩٥١م).

الخنساء، (تماضر بنت عمرو بن الشريد السلمية)، ديوانها، بيروت: دار
صادر، (د. ت).

دريد بن الصمة الجشمي، ديوانه، تحقيق محمد خير البقاعي، دمشق دار قتيبة،
١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

الزبيدي، (محمد بن الحسن)، طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبي الفضل
إبراهيم، القاهرة: محمد سامي الخانجي، ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م.

الزركلي، (خبر الدين)، الأعلام، بيروت: دار العلم للملايين،
[١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م].

الزنجشيري، (محمود بن عمر)، ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، تحقيق سليم
النعمي، بغداد: مطبعة العاني، [١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م].

زهير بن أبي سلمى، ديوانه، صنعة أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب، القاهرة:
الدار القومية للنشر، (مصور عن طبعة دار الكتب لسنة ١٣٦٣هـ / ١٩٤٤م).

زيد الخيل الطائي، شعره، صنعة أحمد مختار البزرة، دمشق / بيروت دار المأمون
للتراث، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

السكرى، (الحسن بن الحسين)، شرح أشعار الهذليين، تحقيق عبدالستار
فراج، القاهرة: مكتبة دار العروبة، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٥م.

ابن سلام الجمحي (محمد)، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود شاكر،
القاهرة: ؟، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م.

السندوني، (وفاء فهمي)، شعر طيء وأخبارها، الرياض: دار العلوم
١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

ابن الشجري، (هبة الله بن علي)، الحماسة الشجرية، تحقيق عبدالمعين الملوحي
وأساء الحمصي، دمشق: مجمع اللغة العربية، [١٣٩٠هـ] /
١٩٧٠م.

ابن الشجري، مختاراته، تحقيق على محمد البجاوي، القاهرة: دار نهضة مصر،
١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م.

الشمشاطي، (علي بن محمد العدوي)، الأنوار ومحاسن الأشعار، تحقيق السيد
محمد يوسف، الكويت: وزارة الإعلام، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م.
صفدي، (مطاع) وحاوي (إيليا)، موسوعة الشعر، بيروت: شركة خياط
للكتب والنشر، [١٣٩٤هـ] / ١٩٧٤م.

الضبي، (المفضل بن محمد) المفضليات، تحقيق عبدالسلام هارون،
القاهرة: دار المعارف، ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م.

الطبري، (محمد بن جرير)، تاريخه المسمى (تاريخ الرسل والملوك) تحقيق
محمد أبي الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف
١٣٨٤هـ / ١٩٦٥م.

طرفة بن العبد، ديوانه، تحقيق درية الخطيب ولطفى الصقال، دمشق: مجمع
اللغة العربية، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م.

الطرماسح بن حكيم، ديوانه، تحقيق عزة حسن، دمشق: وزارة الثقافة والسياحة
والإرشاد القومي، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م.

الطفيل الغنوي، ديوانه، تحقيق محمد عبدالقادر أحمد، بيروت: دار الكتاب
الجديد، [١٣٨٨هـ] / ١٩٦٨م.

ابن عاصم (المفضل بن سلمة)، الفاخر، تحقيق عبدالعليم الطحاوي، القاهرة:
مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م.

ابن عبدربه، (أحمد بن محمد)، العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين وآخرين
القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٥م.

أبوعبيدة، (معمربن المثنى)، أيام العرب قبل الإسلام، تحقيق عادل جاسم
البياتي، بيروت: عالم الكتب ومكتبة النهضة العربية، ١٤٠٧هـ /

- ١٩٨٧م. النقائص، تحقيق: أ.أ. أبيقان، لندن: بريل
١٣٢٦ - ١٣٢٧هـ / ١٩٠٨ - ١٩٠٩م.
- العشماوى، (محمد زكي)، قضايا النقد الأدبي، بيروت: دار النهضة العربية،
١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.
- عنتربن شداد العبيسي، ديوانه تحقيق محمد سعيد مولوى، دمشق: المكتب
الإسلامي، ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م.
- الفرزدق، (همام بن غالب الدارمي)، ديوانه، بيروت، دار صادر/ دار
بيروت، ١٣٨٥هـ / ١٩٦٦م.
- الفيلصل، (عبدالعزیز بن محمد)، شعراء بني عقيل وشعرهم، الرياض: ؟،
١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م.
- ابن قتيبة الدينوري، (عبدالله بن مسلم)، عيون الأخبار، القاهرة: الهيئة المصرية
العامة للكتاب، [١٣٩٣هـ] / ١٩٧٣م.
- القرشي، (محمد بن أبي الخطاب)، جمهرة أشعار العرب، تحقيق محمد علي
الهاشمي، الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
١٤٠١هـ / ١٩٨١م.
- القيسي، (نوري حمودي)، شعراء إسلاميون، بيروت: عالم الكتب / مكتبة
النهضة العربية، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م.
- كعب بن مالك الأنصاري، ديوانه، تحقيق سامي العاني، بغداد: مكتبة المعارف،
[١٣٨٦هـ] / ١٩٦٦م.
- ليبد بن ربيعة العامري، شرح ديوانه، تحقيق إحسان عباس، الكويت، وزارة
الإعلام، (طبعة ثانية مصورة)، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.
- المرزباني، (محمد بن عمران) معجم الشعراء، تحقيق عبدالستار فراج،
القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي [١٣٨٠هـ] / ١٩٦٠م.
- المرزوقي، (أحمد بن محمد)، شرح ديوان الحماسة، تحقيق أحمد أمين
وعبدالسلام هارون، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر،
١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م.

النص، (إحسان)، العصية القبلية في العصر الأموي، بيروت: دار
الفكر، ١٩٧٣م.

ابن منظور الإفريقي، (محمد بن مكرم بن علي)، لسان العرب المحيط،
بيروت: دار لسان العرب، (د. ت.).

ياقوت الحموي، (معجم البلدان)، بيروت: دار صادر، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م.
يزيد مفرغ الحميري، ديوانه، تحقيق عبدالقدوس أبوصالح، بيروت: دار الرسالة،
١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م.
